

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تفسير سورة الرعد

هذه السورة مكية، قاله سعيد بن جُبَيْر، وقال قتادة: هي مدنية غير آيتين: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾^(١)، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا﴾ الآية^(٢)، حكاها الزهراوي، وحكى المهدوي عن قتادة أن السورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾^(٣)، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل، وإربد بن ربيعة فهو مدني، وقيل: السورة مدنية، حكاها مُنْذِر بن سعيد البَلْطُوطي، وذكره مَكِّي بن أَبِي طالب^(٤).

قوله عز وجل:

﴿الْمَرَّةَ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدِيرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِّغُوا رِيبَكُمْ تَوْفِقُونَ﴾.

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأويلات في ذلك، إلا أن الذي يخص هذا الموضع من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «إن هذه الحروف من قوله: أنا الله أعلم وأرى»، ومن قال: «إن حروف أوائل السور هي مثال لحروف المعجم» قال: الإشارة هنا بـ ﴿تِلْكَ﴾ هي إلى حروف المعجم، ويصح - على هذا - أن يكون ﴿الْكِتَابِ﴾ يراد به القرآن، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل. و﴿الْمَرَّةَ﴾ - على هذا - ابتداءً،

(١) من الآية (٣١) من السورة.

(٢) هي نفس الآية (٣١)، ولعل من يقول بهذا - وهو قتادة - يعتبرهما آيتين بخلاف ما في رسم المصحف اليوم.

(٣) من الآية (٤٣) وهي آخراية في السورة.

(٤) الذي في الأصول «بكر بن أبي طالب»، والتصويب عن تفسير «البحر المحيط».

و﴿تِلْكَ﴾ ابتداءً ثانٍ، و﴿آيَاتُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول. وعلى قول ابن عباس في ﴿الْمَرَّ﴾ تكون ﴿تِلْكَ﴾ ابتداءً، و﴿آيَاتُ﴾ بدلاً منه، ويصح في ﴿الْكِتَابِ﴾ التأويلان اللذان تقدما.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾. ﴿الَّذِي﴾ رفع بالابتداء، و﴿الْحَقُّ﴾ خبره، وعلى هذا تأويل من يرى ﴿الْمَرَّ تِلْكَ﴾ حروف المعجم، و﴿تِلْكَ﴾ و﴿آيَاتُ﴾ ابتداءً وخبر، وعلى قول ابن عباس يكون ﴿الَّذِي﴾ عطفاً على [تِلْكَ]، و﴿الْحَقُّ﴾ خبر [تِلْكَ]، وإذا أُريد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن فالمراد بـ ﴿الَّذِي أُنْزِلَ﴾ جميع الشريعة، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه. ويصح في ﴿الَّذِي﴾ أن يكون في موضع خفض عطفاً على [الْكِتَابِ]، فإن أردت - مع ذلك - بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن كانت الواو عطف صفة لشيء واحد، كما تقول: جاءني الظريفُ والعاقلُ وأنت تريد شخصاً واحداً^(١)، ومن ذلك قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقَرْمِ وَابْنِ الْهُمَامِ وَلَيْثِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ^(٢)

وإن أردت - مع ذلك - بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ التوراة والإنجيل فذلك بَيِّن، فإن تأولت - مع ذلك - [الْمَرَّ] حروف المعجم رفعت قوله: ﴿الْحَقُّ﴾ على إضمار مبتدأ تقديره: هو الحق، وإن تأولتها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فـ ﴿الْحَقُّ﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾. ومن رفع ﴿الْحَقُّ﴾ بإضمار ابتداء وقف على قوله: ﴿مِنْ رَبِّكَ﴾ وباقي الآية ظاهر إن شاء الله.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ الآية. لما تضمن قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ توبيخ الكفرة عقب ذلك بذكر الله تبارك وتعالى الذي ينبغي أن يُوقن به، وبذكر الأدلة الداعية إلى الإيمان به. والضمير في قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ قالت فرقة: هو عائد على ﴿السَّمَوَاتِ﴾ فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ - على هذا - في موضع الحال، وقال جمهور الناس: لا عمد للسَّمَوَاتِ، وقالت فرقة: الضمير عائد على «العمد»، فـ ﴿تَرَوْنَهَا﴾ -

(١) هذا في الأصل هو رأي الفراء، وأجازه الحوفي مع ابن عطية، وذكره أيضاً الطبري في تفسيره، وقال: «ثم يبتدئ الحق بمعنى: «ذلك الحق»، فيكون رفعه بمضمر من الكلام قد استغنى بدلالة الظاهر عليه منه».

(٢) القَرْم (بفتح القاف): السَّيِّدُ المعظم، قيل له ذلك على التشبيه بالفحل الذي يُترك من الركوب والعمل ويُودع للفَحْلَةِ. والكتيبة: الطائفة المحدودة من الجيش. والمُرْدَحَم: محل الازدحام، والشاهد هنا أن الواو عطف صفات لشيء واحد، والشاعر يريد: إلى الملك القرم بن الهمام ليث الكتيبة.

على هذا - صفة للعمد، وقالت هذه الفرقة: للسموات عمَدٌ غير مرئية، قاله مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس: وما يدريك أنها بعمد لا ترى، وحكى بعضهم أن العمَد جبل قاف المحيط بالأرض، والسماءُ عليه كالقبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله ضعيف، والحق ألاَّ عمَد جملة، إذ العمَد تحتاج إلى عمَد، ويتسلسل الأمر فلا بُدَّ من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَيُتِمِّسُكَ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾^(١)، ونحو هذا من الآيات. وقال إياس بن معاوية: السماءُ مقببة على الأرض مثل القبة. وفي مصحف أبيي «تَرَوْنَهُ» بتذكير الضمير.

و«العمَد» اسم جمع عمود، والباب في جمعه «عمُد» بضم الحروف الثلاثة، كرسول ورُسُل وشهاب وشُهَب، وغيره. ومن هذه الكلمة قول النابغة:

وَحَبَرَ الْجَنِّ أَنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ يَبْنُونَ تَذْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالْعُمْدِ^(٢)

وقال الطبري: «العمَد (بفتح العين) جمع عمود، كما جُمع الأديم أَدَمًا»، وليس كما قال. وفي كتاب سيبويه أن الأدم اسم جمع، وكذلك نصُّ اللغويون على العمَد، ولكن أبا عبيدة ذكر الأمر غير مُتَيَقِّنٍ فاتَّبَعَهُ الطبري. وقرأ يحيى بن وثَّاب: ﴿يَغَيِّرُ عُمْدِ﴾ بضم العين.

وقوله: [ثُمَّ] هي هنا لعطف الجُمْل لا للترتيب، لأن الاستواء على العرش قبل رفع السموات، ففي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (كان الله ولم يكن شيء قبل، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض)^(٣).

(١) من الآية (٦٥) من سورة (الحج).

(٢) ويُرْوَى: وَحَيَّسَ، بمعنى: ذَلَّلَ، وتَذْمُرُ: بلد بالشام بناها سيدنا سليمان عليه السلام، والصُّفَّاح: حجارة عراض رفاق. والعمُد: جمع عمود.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب (بدء الخلق)، والترمذي في التفسير، والإمام أحمد في مسنده (٣١٢-٢)، (٥٠١) و(٤٣١-٤)، ولفظه كما جاء في البخاري عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: (دخلت على النبي ﷺ وَعَقَلْتُ نَاقَتِي بِالْبَابِ، فَأَتَاهُ نَاسٌ مِنْ تَمِيمٍ، فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ، قَالُوا: قَدْ بَشَرْتَنَا فَأَعْطَنَا، مَرَّتَيْنِ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ، فَقَالَ: اقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ، قَالُوا: قَدْ قَبَلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالُوا: جِئْنَاكَ نَسْأَلُكَ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، وَكُتِبَ فِي الذِّكْرِ كُلِّ شَيْءٍ، وَخُلِقَ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، فَنَادَى =

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواء^(١)، واختصاره أن أبا المعالي رجّح أنه استوى بقهره وغلته، وقال القاضي ابن الطيب وغيره: ﴿أَسْتَوَى﴾ في هذا الموضع بمعنى: استولى، والاستيلاء قد يكون دون قهر، فهذا فرق ما بين القولين، وقال سفيان: فعل فعلاً سَمَاءً استواءً، وقال الفراء: رسول الله [أَسْتَوَى] - في هذا الموضع - كما تقول العرب: «فعل زيد كذا ثم استوى إليّ يكلمني»، بمعنى أقبَلَ وقَصَدَ، وحكي لي عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال: ﴿الْعَرْشُ﴾ - في هذا الموضع - مصدر (عَرَشَ)، فكأنه أَرَادَ جميع المخلوقات، وذكر أبو منصور عن الخليل أن العرش: المُلْكُ، وهذا يؤيد منزع أبي الفضل بن النحوي إذ قال: «العرش مصدر»، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أن ﴿الْعَرْشُ﴾ هو أعظم المخلوقات، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماء، والذي بين يديه الكرسي، وأيضاً فيبقى النظر على أبي الفضل في معنى الاستواء قريباً مما هو على قول الجميع. وفي البخاري عن مجاهد أنه قال: «المعنى: علا على العرش»، وكذلك هي عبارة الطبري^(٢)، والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ تنبيه على القدرة، و﴿السَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ في ضمن ذكرهما ذِكْرُ الكواكب، ولذلك قال: ﴿كُلُّ يَجْرِي﴾، أي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التسخير، و(كُلُّ) لفظة تقتضي الإضافة ظاهرة أو مقدرة.

والأجلُ المُسمَّى هو انقضاء الدنيا وفساد هذه البنية، وقيل: يريد بقوله: ﴿لِإِحْكَامِ مُسْكًى﴾ الحدود التي لا تتعدها هذه المخلوقات، أي: تجري على رسوم معلومة^(٣).

= مناد: ذهبت ناقتك يا بن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لو ددْتُ أني كنتُ تركتها.

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٥٤) من سورة الأعراف: ﴿إِنَّكَ رَبُّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾.

(٢) في القرطبي: «وحكى أبو عمر بن عبد البر عن أبي عبيدة في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قال: علا، وقال الشاعر:

فأوردتهم ماءً بفتقاء قفرةٍ وقد حلقَ النّجمُ اليماني فاستوى
أي: علا وارتفع. وعُلُوُّ الله تعالى عبارة عن عُلُوِّ مجده وصفاته وملكوته، أي: ليس فوقه فيما يجب له من معاني الجلال أحد.

(٣) هذا رأي ابن عباس، نقل في القرطبي عنه قوله: «أراد بالأجل المسمى درجاتهما ومنازلهما التي يتنهان إليها لا يتجاوزانه».

وقوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ بمعنى يُبْرِم وينفِّذ، وعَبَّرَ بالتدبير تقريباً للأفهام، إذ التدبير إنما هو النظر في أدبار الأمور وعواقبها، وذلك من صفة البَشَر، و[الأمر] عامٌّ في جميع الأمور وما ينقضي في كل أوان في السموات والأرض. وقال مجاهد: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ معناه يقضيه وحده. وقرأ الجمهور: ﴿يُفْصِّلُ﴾ بالياء، وقرأ الحسن بنون العظمة، ورواها الخفاف وعبد الوهاب عن أبي عمرو، وهيرة عن حفص، قال المهدوي: ولم يختلفا في [يُدَبِّرُ]، وقال أبو عمرو الداني: إن الحسن قرأ بالنون فيهما، والنظر يقتضي أن قوله: ﴿يُفْصِّلُ الْآيَاتِ﴾ ليس على حدِّ قوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ من تعديد الآيات، بل لما تعددت الآيات وفي جملتها تدبير الأمر أخبر أنه يُفْصِّلُ الآيات لعل الكفرة يوقنون بالبعث، و[الآيات] هنا إشارة إلى ما ذكر في الآية وبعدها.

قوله عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّغَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوَاجِينَ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ فِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَوِّزَاتٌ وَجَعَلَتْ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَيْتٍ وَنَخِيلٍ صِنُونًا وَغَيْرُ صِنُونٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِصِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْثَلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

لما فرغت آيات السماء ذكر آيات الأرض. وقوله: ﴿مَدَّ الْأَرْضَ﴾ يقتضي أنها بسيطة لا كروية، وهذا هو ظاهر الشريعة. والرواسي: الجبال الثابتة، يقال: «رسا يرسو» إذا ثبت، ومنه قول الشاعر:

بِهِ خَالِدَاتٌ مَا يُرْمَنَ وَهَامِدٌ وَأَشْعَثُ أَرْسَتُهُ الْوَلِيدَةُ بِالْفِهْرِ^(١)

والزَّوْجُ في هذه الآية هو الصنف والنوع، وليس بالزوج المعروف في المتلازمين الفردين من الحيوان وغيره، ومنه قوله: ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾^(٢) الآية،

(١) البيت للأحوص، ورواية (اللسان): «سوى خالديات» بدلاً من «به خالديات»، وما يُرْمَنُ: ما يُطْلَبُنِ، من قولك: رُمْتُ الشيءَ أرومه رؤماً بمعنى أطلبه، والهامد: الساكن الذي لا يتحرك، والأرض الهامدة: التي لا نبات فيها، والأشعث: المتفرق، وأرسته: ثبته، والفهر: الحجر قدر ما يُدْقُ به الجوز ونحوه، أو هو حجر يملأ الكف، وفي الحديث: (لما نزل ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَا وَتَبَّ﴾ جاءت امرأته وفي يدها فهر، قال هو الحجر ملاء (الكف)).

(٢) من الآية (٣٦) من سورة (يس).

ومثل هذه الآية: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾ الآية في (ق)^(١)، وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة فموجود منها نوعان، فإن اتفق أن وجد من ثمرة أكثر من نوعين فغير ضار في معنى الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿يُغْشِي﴾ بسكون الغين وتخفيف الشين، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم - في رواية أبي بكر - بفتح الغين وشد الشين، وكفى ذكر الواحد ذكر الآخر، وباقي الآية بين. ويشبه أن الأزواج التي يراد بها الأنواع والأصناف والأجناس إنما سُمِّيت بذلك من حيث هي اثنان اثنان في كل ثمرة ذكر أو أنثى، وأشار إلى ذلك الفراء عند المهدوي، وحكى عنه غيره ما يقتضي أن المعنى تم في قوله: ﴿الْشَّجَرَاتُ﴾، ثم ابتدأ أنه جعل في الأرض من كل ذكر وأنثى زوجين.

وقوله: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ﴾ جمع قطعة، وهي الأجزاء، وقيد منها في هذا المثال ما تجاوز وقرب بعضه من بعض لأن اختلاف ذلك في القرب أغرب^(٢)، وقرأ الجمهور: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿قِطْعٌ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: [وَجَنَّاتٍ] بالنصب بإضمار فعل، وقيل: هو عطف على [رَوَاسِي]، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ بالرفع في الكل عطفاً على ﴿قِطْعٌ﴾، وقرأ الباقون بالخفض في الكل عطفاً على ﴿أَعْنَابٍ﴾، وجعل الجنة من الأعناب، ومن رفع «الزَّرع» فالجنة حقيقة هي الأرض التي فيها الأعناب، وفي ذلك تجوُّز، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ
مِنَ النَّوَاضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحْقًا^(٣)

- (١) من الآية (٧) من سورة (ق).
(٢) قيل: في الكلام حذف، والمعنى: وفي الأرض قطع متجاورات وغير متجاورات، كما قال تعالى: ﴿سَرَّيْلٌ يَنْفِخُكُمْ الْعَصْرُ﴾ أي: «وتقيكم البرد»، ثم حذف لعلم السامع، والمتجاورات: المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات: الصحارى وما كان غير عامر.
(٣) البيت لزهير بن أبي سلمى، قال في (اللسان - جنن): «والجَنَّةُ: البستان، ومنه الجنات، والعرب تسمي النخيل جَنَّةً، قال زهير: كَانَ عَيْنِي...»، والمُقْتَلُ: المُدَلَّلُ المكدود بالعمل، يقال: ناقة مُقْتَلَةٌ أي مُدَلَّلَةٌ لعمل من الأعمال، وقد استشهد صاحب اللسان على هذا المعنى بالبيت نفسه في مادة (قَتَلَ)، والنَّوَاضِحُ من الإبل: التي يستقى عليها، واحداها ناضح، ومنه ما جاء في حديث معاوية حين قال =

أي: نخيل جنة، إذ لا يوصف بالسحق إلا النخيل. ومن خفض الزرع فالجنات من مجموع ذلك لا من الزرع وحده، لأنه لا يقال للمزرعة جنة إلا إذا خالطها شجرات^(١).

و﴿صِنَوَانٌ﴾ جمع صِنُو وهو الفرع تكوّن مع الآخر في أصل واحد، وربما كان أكثر من فرعين، قال البراء بن عازب: الصِنَوَان: المجتمع، وغير صنوان: المتفرق فرداً فرداً، ومنه قول النبي ﷺ: (الْعَمُّ صِنُو الْأَب)^(٢)، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسرع إليه العباس في ملاحاة، فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: أردت يا رسول الله أن أقول للعباس فذكرت مكانه منك فسكتُ، فقال رسول الله ﷺ: (يرحمك الله يا عمر، العم صنو الأب)، وجمع الصنو صنوان^(٣)، وهو جمع مكسر، قال أبو علي: وكثرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع، وهو جار مجرى فُلْكَ، وتقول: صنو وصنوان في الجمع بتنوين النون وإعرابه. وقرأ عاصم - في رواية القواس - عن حفص: [صُنَوَان] بضم الصاد، قال أبو علي: هو مثل ذُنْب وذُؤْبَان، وهي قراءة ابن مُصَرِّف، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وهي لغة تميم وقيس، وكسر الصّاد لغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن، و قتادة: [صِنَوَان] بفتح الصاد، وهو اسم جمع لا جمع، ونظير هذه اللفظة قَبُو وقَبَوَان، وإنما نص على الصنوان في هذه الآية لأنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابة اختلاف الأكل. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة،

= للانصار وقد قعدوا عن تلقّيه لما حجّ: ما فعلت نواضحكم؟ كأنه يُقرّعهم بذلك لأنهم كانوا أهل حرث وزرع وسقي. والغَرْبُ: عِرْق في مجرى الدمع يسقي فلا ينقطع، وغربا العين: مُقدمها ومؤخرها، يصور عينيه في كثرة الدموع بعيون النواضح المذللة من الإبل التي تدور لتسقي جنة من النخيل العالي في السماء.

(١) قال في «فتح القدير»: «ذكر سبحانه الزرع بين الأعتاب والنخيل لأنه يكون في الخارج كثيراً كذلك، ومثله في قوله سبحانه: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا نَخِلاً وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعاً﴾».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة، وكذلك الدارمي، وأخرجه الترمذي في المناقب، والإمام أحمد في مسنده (١-٩٤، ١٦٥-٤)، ولفظه كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: بعث رسول الله ﷺ عمر على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل، وخالد بن الوليد، والعباسُ عمُّ رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فآغناه الله، وأما خالدٌ فإنكم تظلمون خالداً، وقد احتبس أذراعه وأعتاده في سبيل الله، وأما العباس فهي عليّ ومثلها معها، ثم قال: (يا عمر، أما شعرت أن عمَّ الرجل صِنُو أبيه؟).

(٣) قال في (اللسان - صنا): «والاثنان صِنَوَان، الجمع صِنَوَانُ برفع النون».

والكسائي، والحسن، وأبو جعفر، وأهل مكة: [تُسْقَى] بالتاء، وأمال حمزة، والكسائي القاف، وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿يُسْقَى﴾ بالياء على معنى: يُسْقَى ما ذكر. وقرأ الجمهور: ﴿وَيُفْضَلُ﴾ بالنون، وقرأ حمزة، والكسائي: [وَيُفْضَلُ] بالياء، وقرأ ابن محيصن: ﴿يُسْقَى﴾ و[يُفْضَلُ] بالياء فيهما، وقرأ يحيى بن يَعْمَر، وأبو حنيفة: [وَيُفْضَلُ] بالياء وفتح الضاد [بَعْضُهَا] بالرفع، قال أبو حاتم: وجدته كذلك في لفظ يحيى بن يَعْمَر في مصحفه، وهو أول من نقط المصاحف.

و﴿الْأَكْلُ﴾ اسم ما يُؤْكَل، بضم الهمزة والكاف، والأكل المصدر. وقرأت فرقة: ﴿فِي الْأَكْلِ﴾ بضم الهمزة والكاف، وقد تقدم هذا في البقرة^(١).

وحكى الطبري عن غير واحد - ابن عباس وغيره -: ﴿قَطَعَ مَتَجَوَّرَاتٌ﴾ أي: واحدة سبخة والأخرى عذبة ونحو هذا من القول، وقال قتادة: المعنى: قُرِئَ متجاورات، وهذا وجه من العبرة، كأنه قال: وفي الأرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بمعان فهي تسقى بماء واحد ولكن تختلف فيما تخرجه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو: من تربة واحدة ونوع واحد، والعبرة في هذا أبين، لأنها مع اتفاقها في التربة والماء تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حين سئل عن هذه الآية فقال: (الدَّقْلُ والفارسي^(٢) والحلو والحامض)^(٣)، وعلى المعنى الأول قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسطحها الله فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماء واحد من السماء، فتخرج هذه زهرة وثمره، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماء تذكرة فرقّت قلوب وخشعت، وقست قلوب، ولهت قلوب، ووجفت قلوب^(٤)، قال الحسن: فوالله ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه

(١) عند تفسير قوله تعالى في الآية (٢٦٥): ﴿كَمْثَلٍ جَسَمٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَتَأَنَّتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ﴾.

(٢) الدَّقْلُ: رديء التمر، والفارسي: نوع جيد من التمر ينسب إلى فارس.

(٣) أخرجه الترمذي وحسنه، والبزار، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ، وابن مردويه - عن أبي هريرة رضي الله عنه، (فتح القدير).

(٤) وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

النَّاسُ كَالنَّبْتِ وَالنَّبْتُ السَّوَانُ	منها شجرُ الصَّنَدَلِ والكافور والْبَانِ
ومنها شجرٌ ينضجُ	طولُ السَّذْرِ قَطْرَان =

زيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْفُرْقَانِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الْفَٰكِلِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(١)، والتفضيل في الأكل [يشمل]^(٢) الأذواق والألوان والملبس وغير ذلك.

قوله عز وجل:

﴿وَإِن تَعَجَبَ فَعَجَبٌ قَوْمُهُمْ إِذْ كُنَّا تَرَابًا ۚ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِيْٓ أََعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ۚ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلُمِهِمْ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَّبِّهِ ۚ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝﴾

آية توبيخ للكفرة، أي: إن تعجب يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق فهم أهل لذلك، وعجب غريب، والمراد به قولهم: «أنعود بعد كوننا تراباً خلقاً جديداً»؟ ويحتمل اللفظ منزعاً آخر، أي: إن كنت تزيد عجباً فهلّم فإن من أعجب العجب قولهم^(٣).

واختلف القراء في قراءة قوله: ﴿أُنْذَا كُنَّا تَرَابًا﴾ - فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: [أيذا كنا تراباً أيذا لفي خلق جديد] جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو مدّ الهمزة ثم يأتي بالياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدّ. وقرأ نافع: [أيذا كنا تراباً] مثل أبي عمرو واختلف عنه في المدّ، وقرأ: [إنّا لفي خلق جديد] مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول من الثاني، غير أنه كان يهمز همزتين، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿أُنْذَا كُنَّا تَرَابًا أَئِنَّا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأ ابن عامر: [إذا كنا تراباً] مكسورة الألف من غير استفهام [أئنّا] بهمز ثم بمدّ ثم بهمز. فمن قرأ

= وقد روى جابر بن عبد الله قال: «سمعت النبي ﷺ يقول لعلي رضي الله عنه: (الناس من شجر شتى، وأنا وأنت من شجرة واحدة)، ثم قرأ النبي ﷺ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قُطْعٌ مُّتَجَوِّرَاتٌ﴾. حتى بلغ قوله: ﴿يُسْقَيْنَ يَمَٰلُوحًا﴾».

(١) الآية (٨٢) من سورة (الإسراء).

(٢) زيادة يحتاج إليها المعنى.

(٣) قال العلماء: التعجب: تغير النفس بما تخفى أسبابه، وذلك في حق الله تعالى محال، فهو لا يتعجب ولا يجوز عليه التعجب، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون، وقيل: الآية في منكري الصانع، أي: إن تعجب من إنكارهم الصانع مع الأدلة الواضحة بأن المتغير لا بدّ له من مغير فهو محل التعجب.

بالاستفهامين فذلك للتأكيد والتَّحْفِي والاهتبال بهذا التقرير^(١)، ومن استفهم في الأول فقط فإنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني، و﴿إِذَا﴾ ظرف له، و﴿إِذَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أَنبُتْ أَوْ نُخْشَرْ إِذَا؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو بَيِّن، والإشارة بـ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى القوم القائلين: ﴿أُنْذَا كُنَّا تَرَابًا﴾، وتلك المقالة إنما هي تقرير وتصميم على الجحد والإنكار للبعث فلذلك حكم عليهم بالكفر.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَعْلَلُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما الحقيقة وأنه أخبر عن كون الأعلال في أعناقهم في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿إِذِ الْأَعْلَلُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾^(٢)، ويحتمل أن يكون مجازاً وأنه أخبر عن كونهم مُغللين عن الإيمان، فهي إذا تجري مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ﴾^(٣)، وباقي الآية بَيِّن. وقال بعض الناس: الأعلال هنا عبارة عن الأعمال، أي: أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتحرير هذا هو في التأويل الثاني الذي ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ الآية، هذه الآية تَبَيِّنُ لخطئهم في أن يتمنوا المصائب ويطلبوا سقوط كسف من السماء أو حجارة تمطر عليهم^(٤) ونحو هذا مع حلول ذلك في الأمم ونزوله بأناس كثير، ولو كان ذلك لم ينزل قط لكان لهم العذر^(٥).

و﴿الْمَثَلَاتُ﴾ جمع مَثَلَةٍ كَسَمَرَةٍ وَسَمَرَاتٍ وَصَدُوقَةٍ وَصَدُوقَاتٍ، وقرأ الجمهور: ﴿الْمَثَلَاتُ﴾ بفتح الميم وضم الثاء، وقرأ مجاهد بفتح الميم والثاء، وذلك جمع مَثَلَةٍ^(٦)

(١) الاهتبال: الاغتنام والاحتياط، وفي حديث أبي ذر في ليلة القدر: (فاهتبلت غفلته واقتَرَضْتُهَا واحتلت له حتى وجدتها، كالرجل يطلب الفرصة في شيء)، (اللسان).

(٢) من الآية (٧١) من سورة (غافر).

(٣) من الآية (٨) من سورة (يس).

(٤) كقولهم: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذِهِ هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾، قال قتادة: طلبوا العقوبة قبل العافية.

(٥) في أكثر النسخ: «لكانوا أعذر».

(٦) اختلفت الأصول في ضبط قراءة مجاهد، ففي بعضها: «بضم الميم والثاء»، وفي بعضها «بفتح الميم» =

في الآخرة بمعنى العِدَّة بالعقوبة. وقرأ عيسى بن عمر: [أَلْمُثَلَّات] بضم الميم والثاء، وزُويت عن أبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب: [أَلْمُثَلَّات] بضم الميم وسكون الثاء، وهاتان جمع مُثَلَّة^(١)، وقرأ طلحة بن مصرف: [أَلْمُثَلَّات] بفتح الميم وسكون الثاء.

ثم رجى تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾. قال الطبري: معناه: في الآخرة، وقال قوم: المعنى: إذا تابوا، و«شَدِيدُ الْعِقَابِ» إذا كفروا^(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من معنى المغفرة هنا إنما هو: سَتْرُهُ في الدنيا وإِمْنَهُ لِلْكَفَرَةِ، ألا ترى التنكير في لفظ ﴿مَغْفِرَةً﴾، وأنها مُنْكَرَةٌ مُقْلَلَةٌ وليس فيها مبالغة كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ﴾^(٣)، ونمط الآية يُعْطِي هذا، ألا ترى حكمه عليهم بالنار؟ ثم قال: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾، فلما ظهر سوء فعلهم وجب في نفس السامع تعذيبهم فأخبر بسيرته في الأمم وأنه يمهّل مع ظُلم الكفر؟ ولم يرد في الشرع أن الله تعالى يغفر ظلم العباد.

ثم خَوْفٌ بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، قال ابن المسيب: لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: (لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أحدٌ عيشاً، ولولا عقابه لا تُتَكَلَّ كل أحد)^(٤)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في القرآن أَرْجَى من هذه

= والثاء، وقد اخترنا ما أثبتته أبو حيان في البحر، ويؤكد صحته أن ابن عطية نسب بعد ذلك قراءة ضم الميم والثاء إلى عيسى بن عمر، ولو كانت قراءة مجاهد قراءة عيسى لما لجأ إلى هذا التفصيل.

(١) على وزن عُزْفَةٍ وغرفات، والثابت في كتب اللغة أن المُثَلَّات بضم الميم والثاء، وكذلك المُثَلَّات بفتح الميم وضم الثاء كلاهما جمع مُثَلَّة بالفتح والضم، وجمع مُثَلَّة بالضم والسكون.

(٢) الجار والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ في محل نصب على الحال، أي: حال كونهم ظالمين، وفي الآية بشارة عظيمة لأن الإنسان حال اشتغاله بالظلم لا يكون تائباً، ولهذا قيل إنها في عصاة الموحدين خاصة، وقيل: المراد بالمغفرة هنا تأخير العقاب إلى الآخرة ليطابق ما حكاه الله من استعجال الكفار للعقوبة، وكما تفيده الجملة المذكورة بعد جملة المغفرة وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ بمعنى أنه يعاقب العصاة من الكافرين عقاباً شديداً.

(٣) من الآية (٨٢) من سورة (طه).

(٤) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس، ذكر ذلك في (الدر المنثور)، وقال في فتح القدير: «أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن سعيد بن المسيب»، ولفظه فيهما: (لولا عفو الله وتجاوزه ما هنا لأحد عيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد).

الآية»، و﴿الْمَثَلَاتُ﴾ هي العقوبات المُنكَلات التي تجعل الإنسان مثلاً يُمَثَّلُ به، ومنه التمثيل بالقتلى، ومنه المثلة بالعبيد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. هذه آية غَضُّ من اقتراحاتهم المُشَطَّطَة التي لم يُجَرَّ الله بها عادة إلا للأمة التي حتم بعذابها واستئصالها، والآية - هنا - يراد بها الأشياء التي سَمَّتها قريش كالمُلْك والكُز وغير ذلك، ثم أخبره الله بأنه منذر، وهذا الخبر قُصِدَ هُوَ بلفظه والناسُ أجمعون بمعناه.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، فقال عكرمة، وأبو الضُّحى: المراد بالهادٍ محمد عليه الصلاة والسلام. و﴿هادٍ﴾ عطف على ﴿مُنْذِرٍ﴾ كأنه قال: «إنما أنت منذر وهاد لكل قوم»، فيكون هذا المعنى يجري مع قوله عليه الصلاة والسلام: (بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ)^(١)، و﴿هادٍ﴾ - على هذا في هذه الآية - داع إلى طريق الهدى. وقال مجاهد، وابن زيد: المعنى: «إنما أنت منذر، ولكل أُمَّة سَلَفَت هَادٍ، أي نبي يدعوهم، والمقصود: فليس أمرك يا محمد ببذع ولا بمنكر»، وهذا يشبه غرض الآية. وقالت فرقة: «الهادي - في هذه الآية - الله عزَّ وجلَّ»، رُوي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، وابن جُبَيْر. و﴿هادٍ﴾ - على هذا - معناه: مخترع للرشاد، والألفاظ تطلق بهذا المعنى، ويعرف أن الله تعالى هو الهادي من غير هذا الموضع. وقالت فرقة: «الهادي علي بن أبي طالب»، وَرَدَتْ عن النبي ﷺ من طريق ابن عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه الآية وعليّ حاضر فأومأ بيده إلى منكب عليّ وقال: (أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيّ، بك يهتدي المهتدون من بعدي)^(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يشبه - إن صح هذا - أن النبي ﷺ إنما جعل علياً مثلاً من علماء الأمة

(١) أخرجه أبو داود في السير، والإمام مسلم في المساجد، والإمام أحمد في مسنده في مواضع متعددة، ولفظه كما في مسند الإمام أحمد (١-٣٠١): (أُعْطِيتْ خَمْساً لَمْ يَعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي، وَلَا أَقُولُهُنَّ فَخْراً، بَعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً الْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ، وَنَصَرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأَحْلَتْ لِي الْغَنَائِمَ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ مَسْجِداً وَطَهوراً، وَأُعْطِيتِ الشَّفَاعَةَ فَأَخْرَجْتُهَا لِأُمَّتِي فَهِيَ لِمَنْ لَا يَشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئاً).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، وأبو نعيم في المعرفة، والديلمي، وابن عساكر، وابن النجار. (الدر المنثور). ويظهر من كلام ابن عطية أنه يشك في صحة هذا الحديث، أو على الأقل أنه يؤوله بما وضعه في كلامه.

وهداتها إلى الدين، كأنه قال: يا علي أنت وصنفك، فيدخل في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر علماء الصحابة - عليهم رضوان الله أجمعين - ثم كذلك من كل عصر، فيكون المعنى - على هذا - : إنما أنت يا محمد منذر، ولكل قوم في القديم والحديث دعاة وهداة إلى الخير، والقول الأول أرجح ما تؤول في هذه الآية.

قوله عز وجل:

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأُتَيْلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾.

لما تقدم تعجب الكفار واستبعادهم البعث من القبور نص الله في هذه الآيات الأمثال المنبهة على قدرة الله تبارك وتعالى القاضية بتجويز البعث، فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس التي هي مفاتيح الغيب، وهي أن الله تبارك وتعالى انفرد بمعرفة ما تحمل كل الإناث من الأجنة في كل نوع من الحيوان، وهذه البداية^(١) تبين أنه لا يتعذر على القادر عليها الإعادة.

و[ما] في قوله تعالى: ﴿مَا تَحْمِلُ﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي مفعولة بـ [يعلم]، ويصح أن تكون مصدرية مفعولة أيضاً بـ [يعلم]، ويصح أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، والخبر [تَحْمِلُ]، وفي هذا الوجه ضعف^(٢). وفي مصحف أبي بن كعب: «ما تحمل كل أنثى وما تضع».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ معناه: ما تنقص، وذلك من معنى ﴿وَعِيضَ أَلْمَاءَ﴾^(٣) وهو من معنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى زوال الشيء عن الرِّحم وذهابه،

(١) البَدْءُ والبَدَاةُ والبُدْءُ والبَدِئَةُ والبَدَاةُ والبَدَاةُ كلها بمعنى واحد وهو فعل الشيء أول، وبالنسبة لله تعالى يكون المعنى: هو الذي أنشأ الأشياء واخترعها ابتداءً من غير سابق مثال. (اللسان).

(٢) إذا كانت [ما] اسم موصول كان العائد عليها في صلاتها محذوفاً، ويكون [تَغِيضُ] متعدياً، وإذا كانت مصدرية كان كل من [تَغِيضُ] و[تَزْدَادُ] لازماً، وثابت عن العرب سماع تعديتهما ولزومهما، وعلى الإعراب الثالث الذي ضَعَفَهُ ابن عطية تكون الجملة الاستفهامية في موضع المفعول. و[تَحْمِلُ] هنا بمعنى حمل البطن وليست بمعنى الحمل على الظهر.

(٣) من الآية (٤٤) من سورة (هود).

فلما قابله قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فُسِّرَ بمعنى النقصان، ثم اختلف المتأولون في صورة الزيادة والنقصان - فقال مجاهد: غَيْضُ الرَّحِمِ أَنْ تهريق دماً على الحمل، فإذا كان ذلك ضعف الولد في البطن وشحب، فإذا أكملت الحامل تسعة أشهر لم تَضَعْ، ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن يكمل فيها من جسمه وصحته ما نقص بهراقة الدم، فهذا هو معنى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾. وجمهور المتأولين على أن غيض الرحم إرسال الدم على الحمل، وذهب بعض الناس إلى أن غيضه هو نضوب الدم فيه وإمساكه بعد عادة إرساله بالحيض، فيكون قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى «تغيض» على غير مقابلة، بل غيض الرحم هو بمعنى الزيادة فيه. وقال الضحاك: غيض الرحم أن تسقط المرأة الولد، والزيادة أن تضعه لمدة كاملة تاماً في خلقه. وقال قتادة: الغَيْضُ السقوط، والزيادة البقاء فوق تسعة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام في كل ما يدخله التقدير.

و[الْغَيْبُ]: ما غاب عن الإدراكات، و[الشَّهَادَةُ]: ما شوهد من الأمور، ووضع المصادر موضع الأشياء التي كل واحد منها لا بد أن يتصف بإحدى الحاليتين.

وقوله: [الْكَبِيرُ] صفة تعظيم على الإطلاق، و[الْمُتَعَالِ] من العُلُوِّ، واختلف القراء في الوقف على (الْمُتَعَالِ) - فأثبت ابن كثير، وأبو عمرو - في بعض ما روي عنه - الياء في الوصل والوقف، ولم يثبتها الباقون في وصل ولا وقف، وإثباتها هو الوجه والباب، واستسهل سيبويه حذفها في الفواصل كهذه الآية قياساً على القوافي في الشعر، ويقبح حذفها في غير فاصلة ولا شعر، ولكن وجهه أنه لما كان التنوين يعاقب الألف واللام أبداً، وكانت هذه الياء تحذف مع التنوين حَسُنَ أن تحذف مع معاقبتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره.

فمن ذلك اختلاف الفقهاء في الدم الذي تراه الحامل - فذهب مالك وأصحابه والشافعي وأصحابه وجماعة إلى أنه حيض. وقالت فرقة عظيمة: ليس بحيض، ولو كان حيضاً لما صح استبراء الأمة بحيض وهو إجماع. وروي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض، ومن ذلك أن الأمة مجمعة على أن أقل مدة الحمل ستة

أشهر، وذلك منتزع من قوله: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾^(١) مع قوله تعالى: ﴿وَالْوِلْدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾^(٢) وهذه الستة الأشهر هي بالأهلة كسائر أشهر الشريعة، ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعض أصحاب مالك - وأظنه في كتاب ابن الحارث - أنه إن نقص من الأشهر الستة ثلاثة أيام فإن الولد يُلحق لعلّة نقص الشهور وزيادتها.

واختلف في أكثر الحمل - فقليل: تسعة أشهر، وهذا ضعيف، وقالت عائشة - رضي الله عنها - وجماعة من العلماء: أكثره حولان، وقالت فرقة: ثلاثة أعوام، وفي المدونة: أربعة أعوام وخمسة أعوام، وقال ابن شهاب وغيره: سبعة أعوام، وروي أن ابن عجلان ولدت امرأته لسبعة أعوام، وروي أن الضحاك بن مزاحم بقي حولين، قال: فولدت وقد نبتت ثنايي، وروي أن عبد الملك بن مروان ولد لسته أشهر.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ﴾ الآية. سواءٌ مصدر، وهو يطلب بعده شيئين يتمثلان، ورفع على خبر الابتداء الذي هو [مَنْ]، والمصدر لا يكون خبراً إلا بإضمار كما قالت الخنساء:

فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ^(٣)

أي: ذاتُ إقبال وإدبار، فقالت فرقة: هنا المعنى: «ذو سواءٍ»، قال الزجاج: كثر استعمال (سواء) في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إلى إضمار. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو عندي كعدلٍ وزورٍ وضيفٍ.

(١) من الآية (١٥) من سورة (الأحقاف).

(٢) من الآية (٢٣٣) من سورة (البقرة).

(٣) هذا عجز بيت قالت الخنساء ضمن أبيات في تصوير حيرتها وقلقها وآلامها لفقد أخيها، وشبهت نفسها بناقة فقدت وليدها فهي في حنين وشوق، وكلما نسيت عادت فتذكرت ورجعت إلى آلامها وحيرتها، والبيت بتمامه مع بيت آخر قبله:

فَمَا عَجُولٌ عَلَى بَوِّ تُطِيفُ بِهِ لَهَا حَيْنَانٌ إِضْغَارٌ وَإِنْجَارٌ
تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حَتَّى إِذَا اذْكَرَتْ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ

والبوّ هو الحوَارُ الصغير، والإضغار: الحنين إذا خَفَضَتْهُ، والإكبار: الحنين إذا رَفَعَتْهُ، وترتعت: رعت في خصب سعة.

وقالت فرقة: المعنى: «مُسْتَوٍ مِنْكُمْ»، فلا يحتاج إلى إضمار، وضعف هذا سيبويه بأنه ابتداءً بنكرة^(١). ومعنى هذه الآية: مُعْتَدِلٌ مِنْكُمْ في إحاطة الله تعالى وعلمه مَنْ أَسَرَّ قوله فهمس به في نفسه وَمَنْ جهر به فَأَسْمَعَ، لا يخفى على الله تعالى شيءٌ.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاء ومن هو متصرف بالنهار ذاهبٌ لوجهه سواءً في علم الله تبارك وتعالى وإحاطته بهما. وذهب ابن عباس، ومجاهد إلى معنى مقتضاه أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو راجل واحد مريب بالليل ويظهر بالنهار البراءة في التصرف مع الناس، فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحة، والمعنى: هذا والذي أمره كله واحد بريء من الرِّيب سواءً في اطلاع الله تعالى على الكل. ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار «مَنْ»، ولا يأتي حذفها إلا في ضرورة الشعر.

والسارب في اللغة المتصرف كيف شاء، ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَى كُلَّ قَوْمٍ كَارَبُوا قَيْدَ فَخْلِهِمْ وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ^(٢)

أي منصرف غير مدفوع عن جهة، وهذا رجل يفخر بعزة قومه، ومن ذلك قول الآخر:

أَنْسَى سَرَبَتٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ وَتَقَرَّبُ الْأَخْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ^(٣)

وتحتمل الآية أن تتضمن ثلاثة أصناف، فالذي يُسِرُّ طرف، والذي يجهر طرف

(١) علق أبو حيان في «البحر المحيط» على ذلك فقال: «وهو لا يصح، بل يجوز أن يكون [سواءً] مبتدأ لأنه موصوف بقوله: [مِنْكُمْ] ومن المعطوف الخبر، وكذا أعرب سيبويه قول العرب: «سواءً عليه الخير والشر».

(٢) هذا البيت للأخس بن شهاب التغلبي، ورواه اللسان:

وَكُلُّ أَنْسَاسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَخْلِهِمْ وَنَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

وقد روى صاحب اللسان عن الأصمعي قوله: «هذا مثل، يريد أن الناس أقاموا في موضع واحد لا يجترئون على النقلة إلى غيره، وقاربوا قيد فحلهم، أي: حبسوا فحلهم عن أن يتقدم فتبعه إبلهم خوفاً أن يُغار عليها، ونحن أعزاء نفتري الأرض، نذهب فيها حيث نشاء، فنحن قد خلعنا قيد فحلنا ليزهد حيث شاء، فحيثما نزع إلى غيث تبعناه».

(٣) الشاعر هو قيس بن الخطيم، وقد نقل صاحب اللسان عن ابن دريد قوله: «سَرَبَتٍ ببااءٍ موحدة، لقوله: (وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ)، وَمَنْ رواه سَرَبَتٍ بالياءِ باثنتين فمعناه: كيف سررت ليلاً وأنت لا تُسرِّين نهاراً؟».

مضاد للأول، والثالث متوسط مُتَلَوْن يعصى بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار، والقول في الآية يطرد معناه في الأعمال، وقال قطرب - فيما حكى الزجاج -: ﴿مُسْتَخْفٍ﴾ معناه: ظاهر، من قولهم: «خَفَيْتُ الشَّيْءَ» إذا أظهرته، قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا خَفَاهُنَّ وَذُقَّ مِنْ عَشِيٍّ مُجَلَّبٍ^(١)

قال: و﴿سَارِبٌ﴾ معناه: مُتَوَارٍ في سرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا القول وإن كان متعلقاً باللغة ضعيف، لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول.

قوله عز وجل:

﴿لَمْ تُمِيعَتِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾^(١١) هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْآزِفَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ^(١٢) وَيَسْجِجُ الرُّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ^(١٣) ﴿١٣﴾

اختلف المتأولون في عود الضمير من [لَهُ] - فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله تعالى المتقدم ذكره، و«المُعَقَّبَاتُ» - على هذا - الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضاً، قاله الحسن، وروى فيه عثمان بن عفان عن النبي ﷺ حديثاً^(٢)،

(١) البيت في وصف فرس، والأنفاق جمع نفق، وهو سرب في أرض إلى موضع آخر، واستعارة امرؤ القيس لحجرة الفران، والودق: المطر، والغيث المجلب: المصوت، ويروى المحلب بالحاء المهملة، وفي رواية اللسان: «وَذُقَّ مِنْ سَحَابٍ مُرْكَبٍ». ورواية ابن عطية هي الثابتة في شعر امرئ القيس.

(٢) الحديث رواه ابن جرير الطبري عن كنانة العدوي، قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: (يا رسول الله، أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمير على الذي على الشمال، فإذا عملت حسنة كتبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: اُكْتُبْ؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب، فإذا قال ثلاثاً قال: نعم، اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته الله، وأقل استحياءه منا، يقول الله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾، وملكاً من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَمْ تُمِيعَتِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وملكٌ قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكاً على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد، وملك قائم على فيك لا يدع الحيّة تدخل في فيك، وملكاً على عينيك، فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمي، ينزلون ملائكة الليل على =

وهو قول مجاهد، والنَّحْي، والضمير - على هذا - في قوله [يَدَيَّهِ] وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِإِلْتِغَابِهِ﴾، و﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون صفة للمُعَقَّبَات، ويحتمل أن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه.

وقال ابن عباس أيضاً^(١): الضمير في [لَهُ] عائد على المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ﴾ وكذا باقي الضمائر التي في الآية، قالوا^(٢): و«المُعَقَّبَات» - على هذا - حرس الرجل وجلالته الذين يحفظونه^(٣)، قالوا: والآية - على هذا - في الرؤساء الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة، هي المواكب خلفه وأمامه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح على التأويل الأول الذي قبل هذا أن يكون الضمير في [لَهُ] للعبد المؤمن على معنى: جعل الله له، وهذا التأويل عندي أقوى^(٤)، لأن غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله، فذكر استواء من هو مُسْتَخَفٌّ ومن هو سارب وأنَّ له معقبات من الله يحفظه في كل حال، ثم ذكر أن الله لا يُعَيِّرُ هذه الحالة من الحفظ للعبد حتى يغيّر ما بنفسه، وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لمُعَيَّنِينَ من البشر.

وقال عبد الرحمن بن زيد: الآية في النبي ﷺ، ونزلت في حفظ الله له من أربد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل في القصة التي تأتي بعد هذا في ذكر الصواعق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضْعَفُ القول أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في [لَهُ] عليه.

و«المُعَقَّبَات»: الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً، فعلى التأويل الأول هي

= ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكاً على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل).

(١) قال: (أيضاً) لأن ابن عباس روي عنه القول الأول، ورويت عنه أقوال أخرى كثيرة.

(٢) يريد أصحاب هذا القول، وقد أشار بعد ذلك إلى أن منهم عكرمة وجماعة.

(٣) الجَلَاوِزَةُ: الشُّرْطَةُ، والمفرد: جَلَّوْزٌ وَجَلَّوْازٌ (المعجم الوسيط).

(٤) في بعض النسخ: «وغير هذا التأويل عندي أقوى».

الملائكة، وينظر هذا إلى قول النبي ﷺ: (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح)^(١)، وعلى التأويل الثاني هي الحرس والورعة الذين للملوك. والمُعَقَّبَات جمع مُعَقَّبَة، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى، والتعقيب بالجملة أن تكون حَالٌ تَعْقُبُهَا حَالٌ أخرى من نوعها، وقد تكون من غير النوع، ومنه معاينة الركوب، ومعقب عقبة القدر، والمعاينة في الأزواج، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَكُرْنَا الْخَيْلَ فِي آثَارِهِمْ رُجْعاً كُسَّ السَّنَابِكُ مِنْ بَدْءٍ وَتَعْقِيبٍ^(٢)

وقرأ عبد الله بن زياد على المنبر: (له المعاقب)، قال أبو الفتح: هو تكسير مُعَقَّب. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

بسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ومقدم ومقاديم، وهي قراءة أبي البرهسم، فكأن معقبا جمع على معاينة ثم جعلت الياء في معاقب عوضاً من الهاء المحذوفة في معاينة.

والمُعَقَّبَة ليست جمع مُعَقَّب كما ذكر الطبري وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات، وليس الأمر كما ذكر لأن تلك كَجَمَلٍ وَجَمَالٍ وجمالات، ومُعَقَّبَة ومُعَقَّبَات إنما هي كضارب وضاربات^(٣).

(١) أخرجه البخاري في المواقيت والتوحيد، ومسلم في المساجد، والنسائي في الصلاة، ومالك في الموطأ في السفر، وأحمد في مسنده (٢٠٥٧، ٣١٢، ٤٨٦). ولفظه كما في صحيح مسلم: (عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم ربهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون).

(٢) قال سلامة بن جندل هذا البيت من قصيدة يرثي فيها شيا به، ويفخر بنفسه ويقومه، ويذكر بعض المواقع ويعدد الأسلحة ويصف القتال، والرواية: «وكرُّنا خيلنا أدراجها...»، والأدراج: الطرق، ويقال: رجع على أدراجه بمعنى: رجع إلى المواضع التي جاء منها، ومعنى «كُسَّ السَّنَابِكُ» أن السَّنَابِك تحاتَّت وأكلتها الطريق لطولها، والسَّنَابِك جمع سُنْبِك وهو مُقَدَّم الحافر، والتعقيب: الرجوع. والشاعر جاهلي مُقَلٌّ واسمه: سلامة بن عمرو بن كعب بن سعد بن تميم، وهو من الفرسان المعدودين، وتتمثل في شعره خشونة الصحراء.

(٣) قال أبو حيان في «البحر» «وينبغي أن يُتأول كلام الطبري على أنه أراد بقوله: «جمع مُعَقَّب» أنه أطلق من حيث الاستعمال على جمع «مُعَقَّب» وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «مُعَقَّب»، وصار مثل «الواردة»=

وفي قراءة أبي بن كعب: «من بين يديه ورقب من خلفه»، وقرأ ابن عباس: «ورقيباً من خلفه»، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ: «معقبات من خلفه ورقب من بين يديه يحفظونه بأمر الله».

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى يحرسونه ويذُبُّون عنه، فالضمير معمول الحفظ، والمعنى الثاني أن يكون بمعنى حفظ الأقوال وتحصيلها، ففي اللفظة حيث حذف مضاف تقديره: يحفظون أعمالهم، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾^(١)، وهذا قول ابن جريج.

وقوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ - مَنْ جعل ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ بمعنى يحرسونه كان معنى قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ يراد به المعقبات، فيكون في الآية تقديم وتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، قال أبو الفتح: فـ ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ في موضع رفع لأنه صفة لمرفوع وهي «المعقبات»، ويحتمل هذا التأويل في قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ مع التأويل الأول في ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، وَمَنْ تَأَوَّلَ الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على العبد وجعل «المعقبات» الحرس وجعل الآية في رؤساء الكافرين جَعَلَ قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ بمعنى: يحفظونه بزعمه من قَدَرِ الله ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالته بالله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذا التأويل جعلها المتأولون في الكافرين، قال أبو الفتح: فـ ﴿مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ - على هذا - في موضع نصب، كقولك: «حفظت زيدا من الأسد»، فـ «مِنْ الْأَسَدِ» معمول لـ «حفظت». وقال قتادة: معنى بـ ﴿أَمْرِ اللَّهِ﴾ أي يحفظونه مما أمر الله، وهذا تحكم في التأويل، قال قوم: المعنى: الحفظ من أمر الله، وقد تقدم نحو هذا. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة، وجعفر بن محمد - رضي الله عنهم -: [يحفظونه بأمر الله]^(٢).

= للجماعة الذين يردون وإن كان أصله أن يُطلق على مؤنث «وارد»، وتشبيه الطبري ذلك برجل ورجال ورجالات من حيث المعنى لا من حيث صناعة النحويين، فبيّن أن «معقبة» من حيث أريد به الجمع كرجال من حيث وضع للجمع، وأن «معقبات» من حيث استعمل جمعاً «المعقبة» المستعمل للجمع كرجالات الذي هو جمع رجال». (البحر المحيط ٥-٣٧٢).

(١) من الآية (٨٢) من سورة (يوسف).

(٢) تعليق ابن عطية على قول قتادة بأنه تحكم في التأويل علّق عليه أبو حيان في «البحر» فقال: «وليس =

ثم أخبر تعالى أنه لا يُغَيَّرُ ما يقوم بأن يعذبهم ويمتحنهم معاقباً حتى يقع منهم تكسُّب للمعاصي وتغيير ما أمروا به من طاعة الله، وهذا موضع تأمل، لأنه يداخل هذا الخبر ماقرَّرت الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾^(١)، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام - وقد قيل له: يا رسول الله أَنَهْلِكُ ومنا الصالحون؟ - قال: (نعم، إذا كثر الخبث)^(٢) إلى أشياء كثيرة من هذا، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يُغَيَّرُوا﴾ معناه: حتى يقع تغييرٌ إمَّا منهم وإمَّا من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب، كما عبَّر تعالى بالمنهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثال الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، وثم أيضاً مصائب يريد الله بها أجر المصاب فتلك ليست تغييراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأنه إذا أراد بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له، ولا حفظ منه، وهذا أجري في مقام التنبيه على عادة الله تعالى وقدرته، والشرُّ والخير بمنزلة واحدة إذا أرادهما الله بعدد لم يُرَدَّ، لكنه خصَّ السوء بالذكر ليكون في الآية تخويف.

واختلف القراء في [والِ] - فأماله بعضهم ولم يُملَّه بعضهم، والوالي: الذي يلي أمر الإنسان كالولي، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ﴾ الآية. هذه آية تنبيه على القدرة، «والبرق» رُوي فيه عن النبي ﷺ أنه مخراق بيد مَلَكٍ يزجر به السحاب^(٣)، وهذا أصح ما رُوي فيه،

= بتحكم وورود (من) للسبب ثابت من لسان العرب، تقول: كسوته من عُرِي وعن عُرِي، ويكون معنى (من) ومعنى (الباء) سواء كأنه قيل: يحفظونه بأمر الله وبإذنه، فحفظهم إياه مُتَسَبِّبٌ عن أمر الله لهم بذلك.

(١) من الآية (٢٥) من سورة (الأنفال).

(٢) أخرجه البخاري، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه في الفتن، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٨-٦)، ومالك في الموطأ، ولفظه كما في صحيح مسلم: عن زينب بنت جحش أن النبي ﷺ استيقظ من نومه وهو يقول: (لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍ قد اقترب، فُتِحَ اليوم من رُدْمٍ يأجوج ومأجوج مثل هذه)، وعقد سفيان بيده عشرة - سفيان راوي الحديث - قلت: يا رسول الله، أَنَهْلِكُ وفيما الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبث)، وكلمة «الخبث» يمكن ضبطها بفتح الخاء والباء، ويمكن ضبطها بضم الخاء وسكون الباء ويكون معناها: الفسق والفجور.

(٣) الذي وجدناه في المراجع أن النبي ﷺ قال ذلك عن «الرعد» وصوته، وقد أخرج أحمد، والترمذي =

ورُوي عن بعض العلماء أنه قال: البرقُ: اصطكاك الأجرام، وهذا عندي مردود، وقال أبو الجلد في هذه الآية: البرقُ: الماء، وذكره مكي عن ابن عباس، ومعنى هذا القول أنه لما كان داعية الماء وكان خوف المسافرين من الماء وطمع المقيم فيه عبّر في هذا القول عنه بالماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، من قال ذلك في الماء فهو على ما تقدم، والظاهر أن الخوف إنما هو من صواعق البرق، والطمع في المطر الذي يكون معه، وهو قول الحسن. و﴿السَّحَابُ﴾ جمعُ سحابة، ولذلك جَمَعَ الصفة. و﴿الثَّقَالُ﴾ معناه: يحمل الماء، وبذلك فسّر قتادة ومجاهد، والعربُ تصفها بذلك، ومنه قول قيس بن الخطيم:

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا كَأَنَّ الْمَصَائِيحَ حَوْرَانُهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلَا مُزْنَةَ دُلُوحٍ تَكْشِفُ أَذْجَانُهَا^(١)
والدُّلُوح: الْمُثْقَلَة.

وصححه، والنسائي، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، وابن مردويه، وأبو نعيم في الدلائل، والضياء في المختارة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقبلت يهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، إنا نسألك عن خمسة أشياء فإن أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي وأتبعناك، فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه إذ قال: ﴿وَاللَّهُ عَلَّ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾، قال: هاتوا، قالوا: أخبرنا عن علامة النبي، قال: تنام عينه ولا ينام قلبه، قالوا: أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر، قال: يلتقي الماءان فإذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت، وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت، قالوا: أخبرنا عما حرّم إسرائيل على نفسه، فقال: كان يشتكي عرق النسا فلم يجد شيئاً يلائمه إلا اللبن كذا وكذا - يعني الإبل - فحرّم لحومها، قالوا: صدقت، قالوا: أخبرنا ما هذا الرعد؟ قال: ملكٌ من ملائكة الله مُوَكَّل بالسحاب بيده مخراق من نار يزر به السحاب يسوقه حيث أمره الله، قالوا: فماذا الصوت الذي نسمع؟ قال: صوته، قالوا: صدقت، إنما بقيت واحدة وهي أن نتابعك إن أخبرتنا، إنه ليس من نبي إلا له ملك يأتيه بالخبر، فأخبرنا مَنْ صاحبك؟ قال: جبريل، قالوا: جبريل ذلك الذي ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا، لو قلت ميكائيل الذي ينزل بالرحمة والنبات والمطر لكان، فأنزل الله: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إلى آخر الآية. راجع: الدر المشور، وفتح القدير، ومسند الإمام أحمد (١-٢٧٤)، أما النص الذي ذكره ابن عطية وفيه لفظ البرق فقد أخرجه أبو الشيخ عن مجاهد، ذكر ذلك في الدر المشور.

(١) قيس بن الخطيم بن عدي بن حارثة الغطريف، كان شاعر الأوس وبينه وبين حسان بن ثابت منافسات، قدم مكة فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام وتلا عليه القرآن، فقال: إني لأسمع قولاً عجباً فدعني أنظر في أمري هذه السنة وأعود، فمات قبل الحول، وهو في شعره يجري مجرى الجاهليين. والقطا: جمع قطاة، وهو نوع من الحمام يؤثر الحياة في الصحراء، ويتخذ أنحوصه في الأرض، ويطير في جماعات، ويقطع مسافات شاسعة، ويبيضه مرقط. والمُزْن: السحاب يحمل الماء والواحدة مزنة، والأدجان جمع =

و[الرَّعْدُ] مَلَكٌ يَزْجُرُ السَّحَابَ بِصَوْتِهِ، وَصَوْتُهُ هَذَا الْمَسْمُوعُ تَسْبِيحٌ، وَالرَّعْدُ اسْمُ الْمَلَكِ، وَقِيلَ: الرَّعْدُ اسْمُ صَوْتِ الْمَلَكِ، وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: (اللَّهُمَّ لَا تُهْلِكْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُقْتَلْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ) ^(١).

وَرَوَى عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرِهِ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَمِعُوا الرَّعْدَ قَالُوا: «سُبْحَانَ الَّذِي سَبَّحْتَ لَهُ»، وَرَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ قَالَ: (سُبْحَانَ مَنْ سَبَّحَ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ) ^(٢)، وَقَالَ ابْنُ أَبِي زَكْرِيَّا: «مَنْ قَالَ إِذَا سَمِعَ الرَّعْدَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَيَحْمَدُهُ لَمْ تَصْبِهِ صَاعِقَتُهُ»، وَقِيلَ فِي الرَّعْدِ أَيْضًا: إِنَّهُ رِيحٌ يَخْتَنِقُ بَيْنَ السَّحَابِ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي لا يصح لأنها نزعات الطبيعيين وغيرهم من الملحدة، وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الملك إذا غضب وزجر السحاب اضطربت من خوفه فيكون البرق، وتحتك فتكون الصواعق.

قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية. قيل: إنه أدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك، وقال ابن جريج: كان سبب نزولها قصة أربد أخى لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وكان من أمرهما فيما روي أنهما قدما على رسول الله ﷺ فدعواه أن يجعل الأمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأبى، فقال عامر: فتكون أنت على أهل المدر وأنا على أهل الوبر ^(٣) فأبى، فقال له عامر: فماذا تعطيني؟ فقال النبي ﷺ: أعطيك أعنة الخيل فإنك رجل فارس، فقال له عامر: والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً حتى آخذك، فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله ذلك وأبناء قيلة ^(٤)، فخرجا

= دَجَنٌ، وَهُوَ ظِلُّ الْغَيْمِ فِي الْيَوْمِ الْمَطِيرِ حِينَ يَكْسُو الْأَرْضَ، وَقَدْ قَالَ قَيْسُ بْنُ الْخَطِيمِ الْبَيْتَيْنِ مِنْ قَصِيدَةٍ يَرِدُ بِهَا عَلَى حَسَّانٍ حِينَ تَعْرُضُ لِأَخْتِ قَيْسٍ فِي إِحْدَى قَصَائِدِهِ.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة، وأحمد، والبخاري في الأدب، والترمذي، والنسائي، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، والحاكم، وابن مردويه، والخرائطي في مكارم الأخلاق عن ابن عمر رضي الله عنهما. (الدر المثور).

(٢) أخرجه ابن جرير، وابن مردويه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وهو حديث مرفوع. (الدر المثور).

(٣) أهل المدر: سكان البيوت المبنية، وأهل الوبر: سكان الخيام من البدو.

(٤) يريد: الأوس والخزرج.

من عنده، فقال أحدهما لصاحبه: لو قتلناه ما انتطح فيها عتزان، فتآمرا في الرجوع لذلك، فقال عامر لأربد: أنا أشغله لك بالحديث واضربه أنت بالسيف، فجعل عامر يحدثه وأربد لا يصنع شيئاً، فلما انصرفا قال له عامر: والله يا أربد لا خفتك أبداً، ولقد كنت أخافك قبل ذلك، فقال له أربد: والله لقد أردت إخراج السيف فما قدرتُ على ذلك، ولقد كنت أراك بيني وبينه أفأضربك؟ فمضيا للحشد على النبي ﷺ، فأصابا أربد صاعقة فقتلته، ففي ذلك يقول لبید بن ربيعة أخوه:

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الْحُتُوفَ وَلَا أَزْهَبُ نَوْءَ السَّمَاءِ وَالْأَسَدِ
فَجَعَنِي الْبَرْقُ وَالصَّوَاعِقُ بِالْ فَارِسِ يَوْمَ الْكَرِيهَةِ النُّجْدِ^(١)

فنزلت الآية في ذلك، وروي عن عبد الرحمن بن صحرار العبدي أنه بلغه أن جباراً من جبابرة العرب بعث إليه النبي ﷺ لِيُسَلِّمَ، فقال: أخبروني عن إله محمد، من لؤلؤ هو أو من ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه^(٢)، وقال مجاهد: إن بعض اليهود جاء إلى النبي ﷺ يناظره، فبينما هو كذلك إذ نزلت صاعقة فأخذت قحف رأسه فنزلت الآية فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَكَ فِي اللَّهِ﴾، يجوز أن تكون إشارة إلى جدال اليهود المذكور وتكون الواو واو حال، أو إلى جدال الجبار المذكور، ويجوز - إن كانت الآية على غير سبب - أن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَكَ فِي اللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم الذين جلبت لهم هذه التنبيهات.

(١) كان أربد قد وفد على الرسول ﷺ في عام الوفود مع عامر بن الطفيل وجابر بن سلمى بن مالك، ولم يوفقهم الله للإسلام، وفي عودتهم توفي عامر بالطاعون، وأصابا أربد صاعقة فقتلته حرقاً، وقد قيل: إن أربد لم يكن شقيقاً للبيد بن ربيعة وإنما هو أخوه لأمه، واسمه أربد بن قيس بن جزء.

والحُتُوف: الهلاك، وجمعه حُتُوف، والنَّوْء: النجم في السماء إذا مال للغروب، وجمعه أنواء، والنُّجْد: البطل ذو النجدة. يقول لبید: كنت أخشى على أربد كل سبب من أسباب الهلاك فقد كان يتعرض لها كلها إلا سبباً واحداً لم أكن أخافه ولا أخشاه وهو أن يموت بصاعقة من السماء، ثم يتحدث عن فجيعة في هذا الفارس المعروف بالشهامة والنجدة في يوم الكريهة وعند الشدة.

(٢) أخرجه ابن جرير، والخرائطي في مكارم الأخلاق - وأخرج مثله النسائي، والبرزاري، وأبو يعلى، وابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، والطبراني في الأوسط، وابن مردويه، والبيهقي في الدلائل - عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وفي الرواية أن رسول الله ﷺ إلى هذا الجبار قد ذهب إليه ثلاث مرات، وفي كل مرة يتعاطم ويتكبر.

و[الْمَحَال]: القوة والإهلاك، ومنه قول الأعشى:

فَرُعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ عَظِيمِ النَّدَى شَدِيدِ الْمَحَالِ^(١)

ومنه قول عبد المطلب:

لَا يَغْلِبَنَّ صَلِيْبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ عَذْوًا مَحَالِكَ^(٢)

وقرأ الأعرج، والضحاك: [الْمَحَال] بفتح الميم بمعنى المحالة، وهي الحيلة، ومنه قول العرب في [ذكر] المثل: «المرء يعز لا محالة»^(٣)، وهذا كالأستدراج والمكر ونحوه، وهذه استعارات في ذكر الله تعالى، والميم إذا كُسِرَتْ أصلية، وإذا فتحت زائدة، ويقال: مَحَلَّ الرجل بالرجل: مَكَّرَ به وأخذ به سعاية شديدة^(٤).

قوله عز وجل:

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسُطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِيَبْلُغُهُ وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ۝ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَهُمْ بِالْعُدُوِّ وَالْأَصْدِقِ ۝ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ قُلْ أَتَأْخُذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ نَفَعًا وَلَا

(١) البيت من قصيدته المشهورة التي قالها يمدح الأسود بن المنذر اللخمي، ومطلعها:

ما بكاء الكبير بالأطلال وسؤالي، فهل ترد سؤالي؟

ورواية الديوان «غزير الندى»، والمحال: المكر والقوة، ويمكن أن يراد به العقوبة، ومنه قول ذي الرمة:

وَبِئْسَ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكْلٌ أَعَدَّ لَهُ الشَّاذِبُ وَالْمِحَالَا

وَالشَّغْزِيَّةُ: ضرب من الحيلة في الصراع، وهي أن تلوي برجلك رجلك.

(٢) وقبله يقول عبد المطلب:

لَا هُمْ إِلَّا الْمَرْزُوقُ نَعُ رَحْلُهُ فَاثْنَعُ حِلَالِكَ

والحلال بالكسر: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم، ويروى: «غدرًا»، والغدر معروف، ويروى: «أبدًا محالك»، هكذا رواه في «البحر المحيط».

(٣) معناه: لا تضيق الحيل ومخارج الأمور إلا على العاجز (مجمع الأمثال للميداني)، وكلمة (ذكر) وردت في بعض الأصول، والأولى أن تحذف، فالمعنى أسلم والتعبير أصبح بدونها.

(٤) قال الزمخشري: «ويجوز أن يكون المعنى: شديد العقاب ويكون مثلاً في القوة والقدرة، كما جاء: «فَسَاعِدَ اللَّهُ أَشَدُّ» وموساه أحد»، لأن الحيوان إذا اشتد غاية كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره، ألا ترى إلى قولهم: «فَقَرَّتْهُ الْفَوَاقِرُ»، وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه.

صَرَ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

الضمير في [لَهُ] عائد على اسم الله تبارك وتعالى، وقال ابن عباس: ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ لا إله إلا الله. وما كان من الشريعة في معناه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هي التوحيد»، ويصح أن يكون معناها: له دعوة العباد بالحق ودعاء غيره من الأوثان باطل.

وقوله: [وَالَّذِينَ] يُرَادُ بِهِ مَا عُبد من دون الله، والضمير في [يَدْعُونَ] لكفار قريش ونحوهم من العرب، وروى اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ بالناء من فوق، و[يَسْتَجِيبُونَ] بمعنى يُجيبون، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعٍ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى التَّدَى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ^(١)

ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيء.

ثم مثل تعالى مثلاً لإجاباتهم بالذي ييسط كَفَيْهِ نحو الماء ويشير إليه بالإقبال إلى فيه، فهو لا يبلغ فمه أبداً، فكَذَلِكَ إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع^(٢). وقوله: [هُوَ] يريد به الماء وهو البالغ، والضمير في [بَالِغِهِ] للفم، ويصح أن يكون [هُوَ] يراد به الفم وهو البالغ أيضاً، والضمير في [بَالِغِهِ] للماء، لأن الفم لا يبلغ الماء أبداً على تلك الحال، ثم أخبر تعالى عن دعاء الكافرين أنه في ضلال ولا يفيد شيئاً ولا يغني.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ الآية. يحتمل ظاهر هذه الألفاظ أنه جرى في طريق التنبيه على قدرة الله وتسخير الأشياء له فقط، ويحتمل أن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد ﷺ، أي: إن كنتم أنتم لا توقنون ولا تسجدون فإن جميع من

(١) قال هذا البيت كعب بن سعد الغنوي يرمي أخاه أبا المغوار، وبعده يقول:

فَقُلْتُ ادْعُ أُخْرَى وَازْعِ الصُّوتَ رَفْعَةً لَعَلَّ أَبَا الْمَغْوَارِ مِنْكَ قَرِيبُ

(٢) العرب تضرب مثلاً لمن سعى فيما لا يدركه بالقابض على الماء، قال ضابئ بن الحارث البرجمي:

فَأَيْسَى وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقاً إِلَيْكُمْ كَقَابِضِ مَاءٍ لَمْ تَسِفْهُ أَنَامِلُهُ

أي: لم تحمله أنامله، وروي: «لم تُطعمه»، يعني أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماء، والقابض على الماء ليس في يده شيء، وقال آخر:

فَأَصْبَحْتُ مِمَّا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا مِنْ الْوُدِّ مِثْلَ الْقَابِضِ الْمَاءِ بَالِيدٍ

في السموات والأرض لهم سجود لله تعالى، وإلى هذا الاحتمال نحا الطبري، و﴿مَنْ﴾ تقع على الملائكة عموماً وسجودهم طوعاً بلا خلاف، وأما أهل الأرض فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجودهم طَوْعٌ، وأما سجود الكفرة فهو الكُره، وذلك على نحوين من هذا المعنى، فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعهودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام - كما قال قتادة - فيسجد كرهاً، إمّا نفاقاً، وإمّا أن يكون الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صحَّ إيمانه بعد، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ^(١)

فيدخل الكفار أجمعون في [مَنْ]، لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة بقدرة الله أنواع أكثر من أن تُحصى بحسب رزايه واعتباراته، وقال النحاس، والزجاج: إن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوهُ بِالْقُدُورِ وَالْأَصَالِ﴾ إخبار عن أن «الظلال» لها سجود لله تعالى بالبكر والعشيات، قال الطبري: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَخُوا فِيهِ ظِلَالٌ عَنِ الْيَمِينِ وَالْأَسْمَالِ سُجْدًا لِلَّهِ﴾^(٢)، قال: وذلك هو فيئته بالعشي، وقال مجاهد: «ظلُّ الكافر يسجد طوعاً وهو كاره»، وقال ابن عباس: «يسجد ظلُّ الكافر حين يفيء عن يمينه وشماله»، وحكى الزجاج أن بعض الناس قال: إن «الظلال» هنا يُراد بها الأشخاص، وضعفه أبو إسحاق. و﴿الْأَصَالِ﴾ جمع أصيل^(٣)، وقرأ أبو

(١) هذا عجز بيت قاله زيد الخيل، والبيت بتمامه:

بَجْنَعِ تَفِئْلُ الْبُلُقُ فِي حَجَرَاتِهِ تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وَالْبُلُقُ: سوادٌ وبياضٌ، يقال فرس أبلق، وهي بلفاء، والعرب تقول: دابة أبلق وجبل أبلق،
وَالْحَجَرَاتُ: الجوانب، الأكمة: التلُّ المرتفع، والجمع: أكمت وأكَمَ، وجمع الأكَمِ إكَامٌ مثل جبل
وجبال، وجمع الإكَامِ أَكُمٌ مثل كتاب وكُتِبَ، وجمع الأكَمِ أَكَامٌ مثل عُنُقٍ وأعناق.
(٢) من الآية (٤٨) من سورة (النحل).
(٣) قال ابن جرير في تفسيره: وَالْأَصَالُ جمع أَصْلٌ، والأصل جمع أَصِيلٌ، والأصيل هو العشي، وهو =

مجلز: [والإيصال]، قال أبو الفتح: هو مصدر أصلنا، أي: دخلنا في الأصل، كأصبحنا وأمسينا. وروي أن الكافر إذا سجد لصنمه فإن ظله يسجد لله حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. جاء السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة، إذ كان السؤال والتقرير عن أمر واضح لا مدافعة لأحد فيه ملتزم للحجة، فكان السبق إلى الجواب أفصح في الاحتجاج وأسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقع البدار إليه^(١). وقال مكي: جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل، فلما تقيد من هذا كله أن الله تعالى هو رب السموات والأرض وقع التوبيخ على اتخاذهم من دونه أولياء متصفين بأنهم لا ينفعون أنفسهم ولا يضرونها، وهذه غاية العجز، وفي ضمن هذا الكلام: «وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء»، ولفظه ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تقتضي ذلك.

ثم مثل الكفار والمؤمنين - بعد هذا - بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿سَتَوَىٰ الظُّلُمَاتُ﴾ بالتاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: [يَسْتَوِي] بالياء، فالتأنيث أحسن لأنه مؤنث لم يُفصل بينه وبين فاعله بشيء، والتذكير شائع لأنه تأنيث غير حقيقي والفعل مقدم^(٢)، وشبهت هذه الآية الكافر بالأعمى والكفر بالظلمات، وشبهت المؤمن بالبصير والإيمان بالنور. ثم وقفهم بعد، هل رأوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك واشتباهاه بما خلق الله على أن جعلوا إلهاً غير الله. ثم أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالإفصاح بصفات الله تعالى في أنه خالق كل شيء، وهذا عموم في

= ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال أبو ذؤيب الهذلي:

لَعَنَرِي لِأَنْتَ الْبَيْتُ أَكْرَمُ أَهْلُهُ وَأَقْعُدُ فِي أَقْيَاسِهِ بِالْأَصَائِلِ

واستشهد أيضاً بهذا البيت أبو عبيدة في (مجاز القرآن) على أن أصال جمع أصل، وأصل جمع أصيل، فأصال جمع الجمع، وبهذا أيضاً قال الزجاج.

(١) ومثل هذا قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللَّهُ﴾.

(٢) [أم] في قوله تعالى: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ منقطعة، فهي تقدر بـ (بَلْ) والهمزة، فالتقدير: «بَلْ أَهْلٌ تستوي»، و(هَلْ) وإن نابت عن (الهمزة) إلا أنها تأتي معها كما في قول الشاعر: «أَهْلٌ رَأَوْنَا بَوَادِي الْقَفْرِ ذِي الْأَكَمِ»، فإذا جاءت معها صريحة كان من باب أولى أن تأتي مع [أم] المتضمنة لها، قال ذلك صاحب البحر المحيط (٣٧٩٥).

اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلق لله تعالى، ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربَّ غيره، ووصف نفسه بالوحدانية من حيث لا موجود إلا به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات، لا إله إلا هو العلي العظيم.

قوله عز وجل:

﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرَدٍّ مُكَلَّمٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ۝١٧﴾

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى وإقامة الحجة على الكفر به، ثم لما فرغ ذكر ذلك جعله مثلاً للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به.

و«الماء»: يريد به المطر، و«الأودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله سبحانه: [بِقَدَرِهَا] يحتمل أن يريد بما قُدِّر لها من الماء ويحتمل أن يريد بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها وقرأ جمهور الناس [بِقَدَرِهَا] بفتح الدال، وقرأ الأشهب العقيلي بسكونها.

و«الزَّبَدُ»: ما يحمله السيل من غثاء ونحوه وما يرمي به ضفتيه من الحَبَابِ المَلْتَبِكِ^(١) به، ومنه قول حسان بن ثابت:

والبَخْرُ حِينَ تَهْبُ الرِّيحُ شَامِيَةً فَبَاطِلٌ وَيَزْمِي الْعَبْرَ بِالزَّبَدِ^(٢)

و«الرَّابِي»: المتفخ الذي قَدَّرَبَا، ومنه الرَبْوَةُ.

وقوله تعالى: [وَمِمَّا] خبر ابتداء، والابتداء قوله: [زَبَدٌ] و«مِثْلُهُ» نعت لـ «الزَّبَدِ»، والمعنى: ومن الأشياء التي توقدون عليها ابتغاء الحلي - وهي الذهب والفضة - أو ابتغاء الاستمتاع بها في المرافق - وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي توقدون عليها، فأخبر تعالى أن من هذه أيضاً - إذا أحمي عليها - تكون زبداً مماثلاً للزَّبَدِ الذي يحمله السيل، ثم ضرب تعالى ذلك مثلاً للحق والباطل، أي أن الماء الذي

(١) الحَبَاب: الفقايع تظهر على وجه الماء، الملتبك: المختلط ببعضه ببعض.

(٢) العَبْر بكسر العين: الضفة أو الشاطئ، وورد فيها الفتح، والزَّبَد فسره ابن عطية. والريح الشامية هي التي تهب من جهة الشام. وروي البيت: و«النهر» بدلاً من «البحر».

تشربه الأرض فيقع النفع به هو كالحق، والزبد الذي يخفُو وَيَنْفُسُ^(١) ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل. وقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: كائناً كذا، قال مكّي وغيره: ومنعوا أن يتعلق بقوله: ﴿يُوقَدُونَ﴾ لأنهم زعموا أنه ليس يوقد على شيء إلا وهو في النار، وتعلق حرف الجر بـ ﴿يُوقَدُونَ﴾ يتضمن تخصيص حال من حال أخرى^(٢). وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلقه بـ ﴿يُوقَدُونَ﴾، وقال: قد يوقد على شيء وليس في النار كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَهْئِنُ عَلَى الطَّيْنِ﴾^(٣)، فذلك البناء الذي أمر به أن يوقد عليه ليس في النار ولكن يصيبه لهيها. وقوله: ﴿جُفَاءً﴾ مصدر من قولك: «جفأت القدر» إذا غلت خرج زبدها وذهب. وقرأ رؤية: [جُفَلًا] من قولهم: «جفلت الريح السحاب» إذا حملته وفرقته، قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن^(٤).

وقوله: ﴿مَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن: [تُوقَدُونَ] بالتاء، أي أنتم أيها الموقدون، وهي صفة لجميع أنواع الناس. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن محيصن، ومجاهد، وطلحة، ويحيى، وأهل الكوفة ﴿يُوقَدُونَ﴾ بالياء على الإشارة إلى الناس. و﴿جُفَاءً﴾ مصدر في موضع الحال، وروي عن ابن عباس أنه قال: قوله تعالى: ﴿مِنَ السَّمَاءِ﴾ يريد به الشرع والدين. وقوله تعالى: ﴿فَسَأَلَتْ أَودِيَهُ﴾ يريد به القلوب، أي: أخذ النبيل بحظه والبليد بحظه^(٥).

(١) يخفُو: يبعد، يقال: جفا الشيء: نبأ وبعد، وينفُس: ينفق ويتشر بعد تَلَبُّد.

(٢) قال أبو حيان ردّاً على هذا: «ولو قلنا إنه لا يوقد على شيء إلا وهو في النار، لجاز أن يكون متعلقاً بـ ﴿يُوقَدُونَ﴾، ويجوز ذلك على سبيل التوكيد، كما قالوا في قوله تعالى: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾. البحر المحيط ٣٨٢-٥».

(٣) من الآية (٣٨) من سورة (القصص).

(٤) وعن أبي حاتم أيضاً: «لا يُقرأ بقراءة رؤية، لأنه كان يأكل الفأر»، يعني أنه كان أعرابياً جافياً.

(٥) وقيل في هذه الآية أيضاً: «هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن والقلوب والحق والباطل، فالماء مثل القرآن لما فيه من حياة القلوب وبقاء الشرع والدين، والأودية مثل القلوب. ومعنى ﴿بِقَدَرِهَا﴾: على سعة القلوب وضيقها، فمنها ما انتفع به القلب فحفظه ووعاه وتدبر فيه فظهرت ثمرته وأدرك تأويله ومعناه، =

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسك به الغزالي وأهل ذلك الطريق، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علة تدعو إلى ذلك، والله الموفق للصواب برحمته، وإن صح هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أن قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعتريها^(١).

قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۗ أُولَٰئِكَ هُمُ سَوَاءُ الْحِسَابِ وَمَا وَهُمْ بِهِمْ مِنْ شَيْءٍ لِلَّهِ ۚ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَنْذَرُ أُولَٰئِكَ الْآلِيبِ ۚ﴾^(١٨) الَّذِينَ يُوَفُّونَ وَعْدَهُ اللَّهُ وَلَا يَنْقُضُونَ الْيَمِينَ^(١٩) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ^(٢٠).

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ هم المؤمنون الذين دعاهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه.

و﴿الْحُسْنَى﴾ هي الجنة، ويدخل في هذا النصر في الدنيا ونحو ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن وكل ما يختص به المؤمنون من نعم الله عز وجل.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ هم الكفرة. و﴿سَوَاءُ الْحِسَابِ﴾ هو التقصي على المحاسب، ولا يقع في حسابه شيء من التجاوز. قاله حوشب، وإبراهيم النخعي،

= ومنها دون ذلك بطبقة، ومنها دونه بطبقات، والزبد مثل الشوك والشبه وإنكار الكافرين أنه كلام الله ودفعهم إياه بالباطل، والماء الصافي المتنع به مثل الحق، قال أبو حيان تعليقا على هذا الكلام: «وفي الحديث الصحيح ما يؤيد هذا التأويل، وهو قوله ﷺ: (مَثَلُ مَا يُعْثَبُ بِهِ مِنَ الْهَدَى كَمَثَلِ غَيْثِ أَصَابِ أَرْضًا، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبْلَ الْمَاءِ وَأَنْبَتَ الْكَلَّا وَالْعُشْبُ الْكَثِيرُ، وَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ أَجَادِبُ فَأَسْكَتَ الْمَاءُ فَانْتَفَعَ النَّاسُ بِهِ وَسَقَوْا وَرَعَوْا، وَكَانَتْ مِنْهَا قِيَعَانٌ لَا تَمْسُكُ مَاءً وَلَا تُنْبِتُ كَلًّا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَا جَنَّتْ بِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْهَدَى، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَقْبَلْ هَدَى اللَّهِ الَّذِي جَنَّتْ بِهِ)». «.

(١) وفي نفس الموضوع قال أبو معشر عبد الكريم بن عبد الصمد الطبري صاحب كتاب (سوق العروس): «إن صح هذا التفسير فالمعنى فيه أن الله سبحانه مثل القرآن بالماء، ومثل القلوب بالأودية، ومثل المحكم بالصافي، ومثل المتشابه بالزبد».

وَفَرَّقَدُ السَّبَخِي^(١) وغيره. و«المأوى» حيث يأوي الإنسان ويسكن، و﴿الْمِهَادُ﴾ ما يُفترش ويُلبس بالجلوس والرقاد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْلِكُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والمعنى: أَيْستوي مَنْ هداه الله تعالى فآمن بك وعلم صدق نبوتك وَمَنْ لم يهتد ولا رُزق بصيرة فبقي على كفره؟ فممثل عز وجل ذلك بالعمى، ورُوي أن هذه نزلت في حمزة بن عبد المطلب وأبي جهل بن هشام، وقيل: في عمار بن ياسر وأبي جهل، وهي - بعد هذا - مثال في جميع العالم. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصِرة، أي: إنما يتذكر فيؤمن ويراقب الله مَنْ له لبٌ وتحصيل.

ثم أخذ تبارك وتعالى في وصف هؤلاء الذين يسرهم للإيمان فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾. وقوله: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ اسم للجنس، أي بجميع عهوده، وهي أوامره ونواهيته التي وصّى بها عبده، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْقُضُونَ أَلَيْثُقَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الموائيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: وتقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق معين وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أبيهم آدم عليه السلام.

وَوَصَلُ ما أمر الله به أن يوصل ظاهره في القربات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات، وسوء الحساب هو أن يُتَقَصَّى، ولا يقع فيه مسامحة ولا تغمد.

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِعَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ أَلَسَيِّئَةً أُولَئِكَ لَهُمْ عُقُبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾.

الصبر لوجه الله يدخل في الرزايا والأسقام والعبادات، وعن الشهوات ونحو ذلك.

(١) بفتح السين والباء نسبة إلى السبخة، وهي موضع بالبصرة، قال فرقد: قال لي إبراهيم النخعي: يا فرقد، أتدري ما سوء الحساب؟ قلت: لا، قال: أن يحاسب الرجل بذنبه كله لا يفقد منه شيء.

و[أَتَيْنَا] نصب على المصدر، أو على المفعول من أجله، و«الْوَجْه» في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عند الله تعالى بالحسنات لتقع عليه المثوبة، وهذا كما تقول: خرج الجيش لوجه كذا، وهذا أظهر ما فيه، مع احتمال غيره، و«إقامة الصلاة» هي الإتيان بها على كمالها، والصلاة هنا هي المفروضة.

وقوله تعالى: [وَأَنْفَقُوا] يريد مواصلة المحتاج، و«السَّرُّ» هو فيما أنفق تطوعاً، والعلانية فيما أنفق من الزكاة المفروضة، لأن التطوع كله الأفضل فيه التكم. وقوله ﴿وَيَدْرُؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ أي: ويدفعون من رأوا منه مكروهاً بالتي هي أحسن، وقيل: يدفعون بقول «لا إله إلا الله» شركهم، وقيل: يدفعون بالسلام غوائل الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبالجملة لا يكافئون الشرَّ بالشرِّ، وهذا بخلاف خُلُقِ الجاهلية. ورُوي أن هذه الآية نزلت في الأنصار ثم بقيت عامة - بعد ذلك - في كل من اتصف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ يحتمل أن تكون عُقْبَى دار الدنيا، ثم فُسِّرَ «العقبى» بقوله: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ إذ العقبى تعمُّ حالة الخير وحالة الشر، ويحتمل أن يريد: عقبى دار الآخرة لدار الدنيا، أي: العقبى الجنة^(١) في الدار الآخرة هي لهم، وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾، وقرأ النَّحْعي: [جنةٌ عَدْنٍ يُدْخَلُونَهَا] بضم الياء وفتح الخاء، و[جَنَّاتٍ] بدلٌ من [عُقْبَى] وتفسير لها^(٢). و[عَدْنٍ] هي مدينة الجنة ووسطها^(٣)، ومنها «جَنات الإقامة»، من «عَدَنَ بالمكان» إذا أقام فيه طويلاً، ومنه المعادن، وجَنَاتُ عَدْنٍ يقال: هي سكن الأنبياء والشهداء والعلماء فقط، قاله عبد الله بن عمرو بن العاص، ويروى أن لها خمسة آلاف باب.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: من عمل صالحاً وآمن، قاله مجاهد وغيره، ويحتمل: أي مَنْ صَلَحَ لذلك بقدر الله تعالى وسابق علمه، وحكى الطبري في صفة دخول

(١) في بعض النسخ: «العقبى الحسنة في الدار الآخرة».

(٢) ويكون التقدير: لهم دخول جَنات عَدْنٍ، لأن ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾ حَدَثٌ، و﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ عَيْنٌ، والحدث إنما يُفَسَّرُ بمثله، فالمصدر المحذوف مضاف إلى المفعول، ويجوز أن تكون ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ خبر ابتداء محذوف.

(٣) في صحيح البخاري: (إذا سألتُم الله فاسألوهُ الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تَفجر أنهار الجنة).

الملائكة أحاديث لم تطول بها لضعف أسانيدھا، والمعنى: يقولون: سلام عليكم، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه، والمعنى: هذا بما صبرتم^(١)، والمعنى في ﴿عُقِبَ الدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين، وقرأ الجمهور: ﴿فَنِعْمَ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ يحيى بن وثاب بفتح النون وكسر العين، وقالت فرقة: معنى ﴿عُقِبَ الدَّارِ﴾ أي: أن أغقبوا الجنة من جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل مبني على حديث وردّ وهو: (إن كل رجل في الجنة فقد كان له مقعد معروف في النار فصرفه الله عنه إلى النعيم، فيعرض عليه، ويقال له: هذا مكان مقعدك فبدّلك الله منه الجنة بإيمانك وطاعتك وصبرك)^(٢).

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۖ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ۖ﴾ (٢٥) **اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمَتَّعٌ ۖ** (٢٦) **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَخْلُقُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنَآبُ ۖ** (٢٧) **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ۖ** (٢٨) **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَا أَجَرُ ۖ** (٢٩).

هذه صفة مضادة للمتقدمة، وقال ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ أنه روي: «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته»، وقال مصعب بن سعد: سألت أبي عن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (٣٠) **الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** (٣١) **أَهُمُ الْحَرُورِيُّ؟** قال: لا، ولكن الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وتلا هذه الآية، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله

(١) ف [مَا] مع الفعل بمعنى المصدر، والباء في [بِمَا] متعلقة بمعنى ﴿سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ﴾، ويجوز أن تتعلق بمحذوف تقديره: «هذا بصبركم» كما قال ابن عطية. والقول المضمر في ﴿سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ تكرر في القرآن الكريم، ومنه قوله تبارك وتعالى في الآية (١٢) من سورة (السجدة): ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ أُرُؤِهِمْ وَإِصْبَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا﴾ أي: يقولون: [رَبَّنَا].

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق، والترمذي في فضائل الجهاد، وابن ماجه في الجهاد، والإمام أحمد في مسنده (٢-٥٤١، ٤-١٣١-٢٠٠، ٦-٨٩).

(٣) الآية (١٠٣)، ومن الآية (١٠٤) من سورة (الكهف).

عنه يجعل فيهم الآيتين. و﴿اللَّعْنَةُ﴾: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن الخير جملة، و﴿سَوْءُ الدَّارِ﴾ ضد ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، والأظهر في الدار هنا أنها دار الآخرة، ويحتمل أن تكون الدنيا على ضعف.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ﴾ الآية. لما أخبر تعالى عن تقدمت صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار أنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقّر شأنهم وشأن أموالهم، والمعنى أن هذا كله بمشيئة الله، يهب الكافر المال ليهلك به، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخره. وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ من التقدير، فهو مناقض لـ ﴿يَسْطُرُ﴾، ثم استجهلهم في قوله تعالى: ﴿فرحوا بالحياة الدنيا﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل، يستمتع به قليلاً ثم يفنى. و«المتاع»: ما يُتَمَتَّعُ به مما لا يبقى، قال الشاعر:

تَمَتَّعْ يَا مُشَعَّتْ إِنَّ شَيْئاً سَبَقَتْ بِهِ الْمَمَاتُ هُوَ الْمَتَاعُ^(١)

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، هذا ردٌّ على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماء عليهم كسفاً، ونحو ذلك من قولهم: سَيرَ عنا الأخشين، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردن، وأخي لنا مُضَيِّنَا وأسلافنا، فلما لم يكن ذلك بحسب أن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياء بالإتيان بها إلا إذا أراد الله تعذيب قوم قالوا هذه المقالة، فردّ الله عليهم، أي أن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم، وإنما الأمر بيد الله يُفضل من يشاء ويهدي من يشاء إلى طاعته والإيمان به من أناب إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على القرآن الكريم، أو على محمد ﷺ^(٢).

و﴿الَّذِينَ﴾ بدلٌ مِنْ [مَنْ] في ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وطمأنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كملاً به، ورضى بالثواب عليه، وجودة اليقين. ثم

(١) البيت للمُشَعَّتِ العامري، وهو من مقطوعة له يخاطب نفسه، استشهد به صاحب اللسان على معنى المتاع، قال: «والمتاع: كل ما يتتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها»، وكذلك ذكره صاحب تاج العروس في (متع)، وذكره أبو عبيدة في «مجاز القرآن» شاهداً على معنى المتاع، وكذلك ذكره المرزباني في «معجم الشعراء».

(٢) قالوا: والأظهر أن يعود على الله تعالى مع تقدير مضاف محذوف، والتقدير: إلى دينه وشرعه.

استفتح الإخبار بأن طمأنينة القلوب بذكر الله تعالى، وفي هذا الإخبار حضٌّ وترغيبٌ في الإيمان، والمعنى: إن بهذا تقع الطمأنينة لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم.

و﴿الَّذِينَ﴾ الثاني ابتداءً وخبره ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾، ويصح أن تكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الأولى. و﴿طُوبَى﴾ ابتداءً و﴿لَهُمْ﴾ خبره. وطوبى اسم، ويدل على ذلك كونه ابتداءً، وهي فعلى من الطيب في قول بعضهم، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاء، وقال: هي في موضع رفع، ويدل على ذلك رفع ﴿وَحُسْنٌ﴾^(١)، قال ثعلب: وقرىء: [وَحُسْنٌ] بالنصب، فـ ﴿طُوبَى﴾ - على هذا - مصدر، كما قالوا: سقياً لك، ونظيره من المصادر: الرجعى والعقبى. قال ابن سيدة: والطوبى جمع طيبة - عن كراع -، ونظيره كُوسى في جمع كيسّة، وصُوفى في جمع صيفة^(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي قرأ: ﴿وَحُسْنٌ﴾ بالنصب هو يحيى بن يغمّر، وابن أبي عبله.

واختلف في معنى [طُوبَى] - فقليل: معناه: خير لهم، وقال عكرمة: معناه: نعم لهم، وقال الضحاك: معناه: غبطة لهم، وقال ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحيشية، وقال سعيد بن مشجوح: اسم الجنة طوبى بالهندية، وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث، قال رسول الله ﷺ: (طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المجدُّ في ظلها مائة عام مجدداً لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَطَلٌّ مَمْدُودٌ﴾^(٣)). وحكى الطبري عن أبي هريرة، وعن مغيث بن سُمَيٍّ، وعتبة بن عبد ربه أنه أخبراً

(١) وكما يقال في الكلام: «ويلٌ لعمرو»، وإنما أوتر الرفع في «طوبى» لحسن الإضافة فيه بغير لام، وذلك أنه يقال: طوباك، كما يقال: ويئك، ولولا حسن الإضافة فيه بغير لام لكان النصب فيه أحسن وأفصح، كما أن النصب في قولهم: «تغسأ لزيد وبغداً له وسحقاً» أحسن، إذ كانت الإضافة فيه بغير لام لا تحسن.

(٢) قال صاحب البحر المحيط تعليقاً على ذلك: «وفعلٌ ليست من ألفاظ الجموع، فلعلَّ المقصود أنها اسم جمع». ورأي الجمهور أنها مفرد مصدر مثل بُشْرَى وعُقْبَى، كما أشار ابن عطية.

(٣) قال في «فتح القدير»: ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أنس رضي الله عنه... وساق الحديث. والأحاديث متواترة في أن (طوبى) شجرة في الجنة، لكن بعض الروايات تزيد أخباراً قال عنها ابن عطية: «إنها مما لا يثبت سندها». وقوله تعالى: ﴿وَطَلٌّ مَمْدُودٌ﴾ هو الآية (٣٠) من سورة (الواقعة).

مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة، وأنها تخرج منها الخيل بسرُجها ولُجُمها، ونحو هذا مما لا يثبت سنده .

و«الْمَأْبُ»: المرجع والمآل، من آب يؤوب، ويقال في طوبى: طيبى .

قوله عز وجل:

﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِيَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ ﴿٣٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلِ اللَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْنِسِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ .

الكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾، أي: كما أنفذ الله هذا كذلك أرسلناك، هذا قول، والذي يظهر لي أن المعنى: كما أجرينا العادة بأن الله يضل من يشاء ويهدي، لا الآيات المقترحة، فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة، أرسلناك إليها بوحى لا بالآيات المقترحة، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء^(١) .

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، قال قتادة، وابن جريج: نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي أقول في هذا: إن ﴿الرَّحْمَنُ﴾ هنا يراد به الله تعالى وذاته، ونسب إليهم الكُفر به على الإطلاق، وقصة الحديبية وقصة أمية بن خلف مع عبد الرحمن بن عوف إنما هي عن إباية الاسم فقط، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إلا من قبل محمد ﷺ، ثم أمر الله نبيه بالتصريح بالدين والإفصاح بالدعوة في قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ

(١) وقال الزمخشري: «مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات»، وقال الحسن: «كإرسالنا الرسل أرسلناك»، ف (ذلك) إشارة إلى إرساله الرسل، وقال الحوفي: «الكاف للتشبيه في موضع نصب» .

رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿١﴾ ، و«الْمَتَابُ» : المرجع كالمآب ، لأن التوبة : الرجوع .

ويحتمل قوله : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾ الآية أن يكون متعلقاً بقوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن سِيرَتْ به الجبال أو قُطِعَتْ به الأرض ، هذا تأويل الفراء وفرقة من المتأولين^(١) . وقالت فرقة : بل جواب [لَوْ] محذوف تقديره : ولو أن قرآنًا يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه^(٢) ، قال أهل التأويل : ابن عباس ، ومجاهد ، وغيرهما : إن الكفار كانوا قالوا للنبي ﷺ : أَرَحَ عَنَّا ، أَوْ سَيَّرَ عَنَّا جبلي مكة فقد ضيقا علينا ، واجعل لنا أرضاً قطع غراسة وحرث ، وأخي لنا آباءنا وأجدادنا وفلاناً وفلاناً ، فنزلت الآية في ذلك مُعْلِمةً أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله . وقالت فرقة : جواب [لَوْ] محذوف ولكنه ليس في هذا المعنى ، بل تقديره : لكان هذا القرآن الذي يصنع به هذا ، وتتضمن الآية - على هذا - تعظيم القرآن ، وهذا قول حسن يحرق فصاحة الآية . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ يعضد التأويل الأخير ويترتب مع الآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ ﴾ بمعنى : يعلم ، وهي لغة هوازن ، قاله القاسم بن معن ، وقال ابن الكلبي : هي لغة «هَبِيل» حيٍّ من النخع ، ومنه قول سُحَيْن بن وثيل الرياحي :
أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي أَلَمْ تَتَأَسُّوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ ؟^(٣)

(١) الذي ذكره الفراء في معاني القرآن أن جواب (لَوْ) لم يأت ، فإن شئت جعلت جوابها متقدماً : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ ، وإن شئت كان جوابه متروكاً لأن أمره معلوم ، والعرب تحذف جواب الشيء إذا كان معلوماً إرادة الإيجاز ، قال الشاعر وهو امرؤ القيس :

وَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا رَسُولُهُ سِوَاكَ ، وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَذْفَعًا

ومعنى هذا أن الفراء ذكر التأويلين ، ولكن يترتب على التأويل الأول أن يكون الجواب : «لما آمنوا» ، ولا يصح أن يكون قوله : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴾ جواباً ، بل هو دليل الجواب ، وعبرة ابن عطية توضح أنه لاحظ ذلك عند تقدير الجواب على رأي الفراء .

(٢) حذف الجواب لدلالة المعنى عليه كثير في القرآن وفي كلام العرب ، ومنه في القرآن قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَزَقْنَاهُ مِنْ سِوَاكَ مَا يَتَذَكَّرُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ رَزَقْنَاهُ مِنْ سِوَاكَ مَا يَتَذَكَّرُ ﴾ ، ومنه في كلام العرب بيت امرئ القيس الذي استشهد به الفراء ، وقول امرئ القيس أيضاً :

فَلَوْ أَنَّهُمْ نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً وَلَكِنَّهَا نَفْسٌ تَسَاقَطُ أَنْفُسًا

(٣) قيل : إن البيت لابن سُحَيْن واسمه جابر بدليل قوله فيه : «أني ابن فارس زهدم» ، وزهدم هي فارس =

ويحتمل أن يكون «اليأس» في هذه الآية على بابه، وذلك أنه لما أبعِدَ إيمانهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية، على التأويلين في المحذوف المقدر قال في هذه: أفلم ييأس المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة علماً منهم أن لو شاء الله لهدى الناس جميعاً؟

وقرأ ابن كثير، وابن محيصن [يأيس]، وقرأ ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن أبي مليكة، وعكرمة، والجحدري، وعلي بن حسين، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد: [أفلم يتبين]^(١).

ثم أخبر تعالى عن كفار قريش والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم قوارع من سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، وقرأ ابن مسعود ومجاهد: [ولا يزال الذين ظلموا]، ثم قال: ﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أنت يا محمد قريباً من دارهم، هذا تأويل فرقة منهم الطبري، وعزاه إلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وقال الحسن ابن أبي الحسن: المعنى: أَوْ تَحُلُّ القارعة قريباً من دارهم، وقرأ سعيد بن جبير، ومجاهد: «أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِنْ دِيَارِهِمْ» بالجمع.

= سحيم بن وثيل. ويروى البيت: «أني ابن قاتل زهدم»، وعلى هذا يصح أن ينسب إلى سحيم نفسه، وقوله: يَسْرُونِي: من أسار الجزور، أي: يجترؤني ويقسموني، ويروى: يَأْسِرُونِي من الأسر، وقال الشاعر يَسْرُونِي لأنه كان قد أُسر في صباه فضرِبَ عليه الأسرون بالميسر يتحاسبون على قسمة فدايته، والشاهد فيه أن (يَئِيسَ) بمعنى: يعلم، ومثله في ذلك قول مالك بن عوف: أَلَمْ يَئِيسِ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ وَإِنْ كُنْتُ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيَا بمعنى ألم يعلموا ويتبينوا؟

وكان بعض الكوفيين ينكر أن «يئس» تأتي بمعنى: «علم»، ويزعم أنه لم يسمع أحداً من العرب يقول ذلك، قال الفراء: وأما قول الشاعر (وهوليد):

حَتَّى إِذَا يَتَسَّرَ الرَّمَاةُ وَأَرْسَلُوا غُضْفًا دَوَاجِنَ قَافِلًا أَغْصَاهُهَا

فمعناه: حتى إذا يتسوا من كل شيء مما يمكن إلا الذي ظهر لهم أرسلوا، فهو معنى: «حتى إذا علموا أن ليس وجه إلا الذي رأوا» أرسلوا، كان ما وراءه يأساً. (معاني القرآن ٢-٦٤). وقد علق أبو حيان على ذلك فقال: «وقد حفظ ذلك غيره، فهذا القاسم بن معن من ثقة الكوفيين يقول: «إنها لغة هوازن»، وكذلك نقلها ابن الكلبي» (البحر ٥-٣٩٢).

(١) قال أبو حيان: «وتدل هذه القراءة على أن معنى ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ هنا معنى العلم، كما تضافرت النقول أنها لغة لبعض العرب، وهذه القراءة ليست قراءة تفسير لقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ﴾ كما يدل عليه ظاهر كلام الزمخشري، بل هي قراءة مسندة إلى الرسول ﷺ، وليست مخالفة للسواد إذا كتبوا (يَئِيسَ) بغير صورة الهمزة، وهذه قراءة (فَتَبَيَّنُوا) و(فَتَبَيَّنُوا) وكلتاها في السبعة».

ووعد الله - على قول ابن عباس وقوم - فتح مكة، وقال الحسن ابن أبي الحسن: الآية عامة في الكفار إلى يوم القيامة، وإن حال الكفار هكذا هي أبداً، ووعده الله قيام الساعة، و«القارعة»: الرزية التي تفرع قلب صاحبها بفضاعتها كالقتل والأسر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بُرْسِلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾. هذه آية تأنيس للنبي ﷺ، أي: لا يضيق صدرك يا محمد بما ترى من قومك وتلقى منهم، فليس ذلك ببدع ولا نكير، قد تقدم هذا في الأمم، و«أَمَلَيْتُ لَهُمْ»: أي: مددت المدة وأطّلت، والإملاء: الإمهال على جهة الاستدراج، وهو من الملاءة من الزمن، ومنه: تَمَلَّيْتُ حُسْنَ الْعَيْشِ^(١).

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد للكفار المعاصرين لمحمد عليه الصلاة والسلام.

قوله عز وجل:

﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظَهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ تَقَعَى الَّذِينَ أَنفَقُوا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارِ ﴿٣٥﴾﴾.

هذه الآية بالمعنى راجعة إلى قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، والمعنى: أفمن هو هكذا أحمق بالعبادة أم الجمادات التي لا تضر ولا تنفع؟ هذا تأويل، ويظهر أن القول مرتبط بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، كأن المعنى: أفمن له القدرة والوحدانية ويُجعل له شريك أهل أن ينتقم ويعاقب أم لا^(٢)؟ و«الأنفس» من مخلوقاته وهو قائم على الكل

(١) «تَمَلَّيْتُ حُسْنَ الْعَيْشِ» معناها: تمتعت به، والملاءة بفتح الميم وضمها وكسرهما، ويقال: «تَمَلَّيْتُ عمري» بمعنى استمتعت به، و«تَمَلَّيْتُ حُبِيئاً» أي: عشت معه ملاءة من دهري، قال التميمي في يزيد بن مزيد الشيباني:

وَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ أَمْلَأَكَ حَقْبَةً فحال قضاء الله دون رجائي
أَلَا فَلَيْتُ مَنْ شَاءَ بِغَدِكَ إِنَّمَا عَلَيْكَ مِنَ الْأَقْدَارِ كَانَ حَذَارِي

(٢) [من] موصولة، وصلتها ما بعدها، والخبر محذوف تقديره ما وضحه ابن عطية على التأويلين اللذين =

أي محيط به ليقرب الموعظة من حس السامع، ثم خص من أحوال الأنفس حال كسبها ليتفكر الإنسان عند نظر الآية في أعماله وكسبه^(١).

وقوله: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: سموا من له صفات يستحق بها الألوهية، ثم أضرب عن القول وقّرر: هل تعلمون الله بما لا يعلم، وقرأ الحسن: [تُبْؤُونَهُ] بإسكان النون وتخفيف الباء. و[أم] بمعنى «بل» و«ألف الاستفهام»، هذا مذهب سيويه، وهي كقولهم: «إنها لإبل أم شاء». ثم قررهم بغد، هل يريدون تجويز ذلك بظاهر من الأمر؟ لأن ظاهر الأمر له إلباس ما وموضع من الاحتمال، وما لم يكن إلا بظاهر من القول فقط فلا شبهة له. وقرأ الجمهور: ﴿زَيْنٌ﴾ على البناء للمفعول ﴿مَكْرَهُمْ﴾ بالرفع، وقرأ مجاهد: [زَيْنٌ] على بناء الفاعل ﴿مَكْرَهُمْ﴾ بالنصب، أي: زين الله. و﴿مَكْرَهُمْ﴾ لفظ يعم أقوالهم وأفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة الشرع. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿وَصِدُّوا﴾ بضم الصاد، وهذا على تعدي الفعل، وقرأ الباقر هنا وفي «حلم المؤمن»^(٢) [وَصِدُّوا] بفتحها، وذلك يحتمل أن يكون: صدوا أنفسهم أو صدوا غيرهم، وقرأ يحيى بن وثاب: [وَصِدُّوا] بكسر الصاد^(٣).

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ الآية وعيد، أي: لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأسر والجدوب والبلايا في أجسامهم وغير ذلك مما امتحنهم الله به، ثم لهم عذاب أشق من هذا كله وهو الاحتراق بالنار. و﴿أَشَقُّ﴾: أصعب، من المشقة، و«الواقى» هو الساتر على جهة الحماية، من الوقاية.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ الآية، قال قوم: (مثل) معناه: صفة، وهذا من قولك:

= ذكرهما، وحذف الخبر إذا فهم جائز، وقد ورد كثيراً، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿أَمَنَ سَرَحَ اللَّهِ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾، والتقدير ها هنا: كالقاسي قلبه، وقد دل على الخبر في آيتنا هنا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، كما دل على القاسي قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ قُلُوبُهُمْ﴾، هذا وقد جعل حذف الخبر حسناً في هاتين الآيتين أن المبتدأ يكون في مقابلة الخبر المحذوف.

(١) في بعض النسخ: «عند نظر الله إليه في أعماله وكسبه».

(٢) في قوله تعالى في الآية (٣٧) من سورة المؤمن (غافر): ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِّفِرْعَوْنَ مَوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾.

(٣) وهي كقراءة: ﴿رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ بكسر الراء من قوله تعالى في الآية (٦٥) من سورة يوسف: ﴿قَالُوا يَا بَنَاتَ مَا نَبِئِ هَٰؤُلَاءِ بِضَعْنَاهُنَّ ذَاتَ إِلَيْنَا﴾، وفي اللوامح عن الكسائي وابن يعمر: (وَصِدُّوا) بالكسر لغة.

«مثلث الشيء» إذا وصفته لأحد وقربت عليه فهم أمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾^(١) أي الوصف الأعلى، ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثلاً للجنة هو جزئي الأنهار وأن أكلها دائم، ورافعه عند سيوبه مُقدَّر، قيل: تقديره: فيما يُتلى عليكم أو يُنصَّ عليكم مثل الجنة^(٢)، ورافعه عند الفراء قوله: [تَجْرِي]، أي: صفة الجنة أنها تجري من تحتها الأنهار، ونحو هذا موجود في كلام العرب، وتأول عليه قومٌ أن [مَثَلٌ] مُقْعَم، وأن التقدير: الجنة التي وعد المتقون بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق^(٣)، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود: [أمثال الجنة]، وقد تقدم غير مرة معنى قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وقوله: ﴿أُكْلُهَا﴾ معناه: ما يؤكل فيها^(٤)، «والعُقْبَى والعاقبة والعاقب: حال تتلو أخرى قبلها. وباقي الآية بين، وقيل: التقدير في صدر الآية: «مثل الجنة جنة تجري»، قاله الزجاج، فتكون الآية - على هذا - ضرب مثل لجنة النعيم في الآخرة^(٥).

(١) من الآية (٢٧) من سورة (الروم)، ومثلها قوله تعالى في الآية (٦٠) من سورة (النحل): ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

(٢) عبارة أبي حيان هنا أدق من عبارة ابن عطية، فقد قال: «ارتفع [مَثَلٌ] على الابتداء عند سيوبه، والخبر محذوف، أي: فيما قصصنا عليكم مَثَلُ الجنة، و﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ تفسير لذلك المثل». لأن ابن عطية يجعل عامل الرفع مقدراً عند سيوبه مع أنه هو الابتداء نفسه، هذا وقد أنكر أبو علي الفارسي أن يكون [مَثَلٌ] بمعنى صفة، قال: «إنما معناه التشبيه، ألا تراه يجري مجراه في مواضعه ومتصرفاته؟»، كقولهم: مررتُ برجل مثلك، كما تقول: مررت برجل شبيهك، قال: ويُفسد أيضاً من جهة المعنى، لأننا حين نقول في شرح الآية: «صفة الجنة التي فيها أنهار» يكون كلاماً غير مستقيم المعنى، لأن الأنهار في الجنة نفسها لا صفتها، اهـ، ولكن قيل ردّاً عليه: المثل بمعنى الصفة موجود كقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُ فِي الْإِنْجِيلِ﴾، وقوله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾.

(٣) لأن إقحام الأسماء لا يجوز في القرآن، قال أبو حيان: وقد حكوا عن الفراء أن العرب تفهم كثيراً المَثَل والمِثْل، وأنه خرج على ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فقال: أي: ليس هو كشيء.

(٤) وفي الخبر: (إذا أخذت ثمرة عادت مكانها أخرى)، وقوله تعالى: (وِظْلُهَا) أي: وظلها كذلك دائم، فحذف، أي: ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول.

(٥) معنى كلام الزجاج أن الله تعالى مثل لنا ما غاب عنا بما نراه، وأنكر أبو علي ذلك فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفة أو الشبه، وفي كلا الوجهين لا يصح ما قاله، لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم =

قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُنْزِلَتْ أَنْ أُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا أُشْرَكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَقَابِ ۖ﴾ (٣٦) **وَكَذَلِكَ أُنْزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلِيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ۖ﴾ (٣٧) **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۖ﴾ (٣٨) **يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ۖ﴾ (٣٩).******

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية - فقال ابن زيد: عني به من آمن من أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام وشبهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى مَذْحُهُمْ بأنهم لشدة إيمانهم يُسْرُونَ بما يرد على النبي ﷺ من مباحات الشرع، وقال قتادة: عني به جميع المؤمنين، و[الكتاب] هو القرآن، و﴿مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ يراد به جميع الشرع، وقالت فرقة: المراد «بالذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَيُضَعِّفُ هذا التأويل بأن همهم به أكثر من فرحهم فلا يُعْتَدُ بفرحهم، وَيُضَعِّفُ أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه وقد فَرَّقَ الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب.

و[الْأَحْزَابِ] قال مجاهد: هم اليهود والنصارى والمجوس، وقالت فرقة: أحزاب الجاهلية من العرب، وأمره الله تعالى أن يطرح اختلافهم، وأن يصدق بأنه إنما أمر بعبادة الله وترك الإشراك والدعاء إليه، اعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة.

وقوله: [وَكَذَلِكَ]، المعنى: كما يَسْرُنَا هَؤُلَاءِ للفرح وهؤلاء لإنكار البعض، كذلك

= يصح، لأنك إذا قلت: صفة الجنة جنة، فجعلت الجنة خيراً لم يستقم ذلك، لأن الجنة لا تكون الصفة، وكذلك أيضاً شبه الجنة جنة، ألا ترى أن الشبه عبارة عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حدث، والجنة غير حدث، فلا يكون الأول الثاني.

﴿أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ويحتمل المعنى: والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تلقّيهم، ثم عدّد النعمة بقوله: كذلك جعلناه، أي: سهّلناه عليهم في ذلك وتفضّلنا. و﴿حُكْمًا﴾ نصب على الحال، والحُكم: ما تضمنه القرآن من المعاني، وجعله عربياً لما كانت العبارة عنه بالعربية. ثم خاطب النبي ﷺ محدّراً من اتباع أهواء هذه الفرق الضالة، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة. ووقف ابن كثير وحده على: [وَاقِي] و[هَادِي] و[وَالِي] بالياء، قال أبو علي: «والجمهور يقفون بغير ياء، وهو الوجه»، وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية. في صدرها تأنيس للنبي ﷺ، وردّ على المقترحين من قريش بالملائكة، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً، فالمعنى: إنّ بعثك يا محمد ليس ببدع، فقد تقدم هذا في الأمم، ثم جاء قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر، والمقصد به إنّما هو النفي المحض، لكنه نفي تأكيد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أمر واقع تحت قدرة المنهي عنه فهي زجر، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفي مؤكّد. و﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: إلّا أنّ يأذن الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنّه ليس كائن فيها إلّا وله أجل في بدئه وفي خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر الله تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة، وقال الضحاك، والفراء: المعنى: لكل كتاب أجل^(١).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن، بل يمكن

(١) قال الفراء في «معاني القرآن»: ومثله ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، وذلك عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، «وجاءت سكرة الحق بالموت»، لأن الحق يأتي بها وتأتي به، فكذلك تقول: «لكل أجل مؤجل ولكل مؤجل أجل» والمعنى واحد، والله أعلم اهـ. قال أبو حيان: ولا يجوز ادعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، وأما هنا فالمعنى في غاية الصحة بلا عكس ولا قلب، بل ادعاء القلب هنا لا يصح المعنى عليه إذ ثمّ أشياء كتبها الله أزلية - كنعيم أهل الجنة - ولا أجل لها. وهذا هو نفس الرأي الذي قدمه ابن عطية.

هدم قولهما بأن الأشياء التي كتبها الله أزلية باقية كتنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أجل له.

وقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾، قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: [وَيُثَبِّتُ] بتشديد الباء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بتخفيفها، وقد تخطت الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتلخص من مسلكها أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، وعلمها بحال ما، لا يصح فيها محو ولا تبديل، وهي التي كتبت في أم الكتاب، وسبق بها القضاء، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي أخبر الله تعالى أنه يبدل فيها وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكسوخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيد الحفظه ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت، وجاءت العبارة مستقبلة لمحي الحوادث^(١) وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان، فينتظر البشر ما يمحى أو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم، وقالت فرقة منهم الحسن: هي في آجال بني آدم، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر - وقيل: ليلة نصف شعبان - يكتب آجال الموتى، فيُمحي ناس من ديوان الأحياء ويُثبتون في ديوان الموتى، وقال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم يمحى الله ما يشاء ويثبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عامًا في جميع الأشياء، فمن ذلك أن يكون معنى الآية: إن الله تعالى يغير الأمور عن أحوالها، أعني ما من شأنه أن يُغيّر على ما قدمناه، فيمحى من تلك الحالة ويثبت في التي نقله إليها^(٢)، وروى عن عمر، وابن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء

(١) في (اللسان): يقال: محى محوًا ومحيًا.

(٢) قال القرطبي: «مثل هذا لا يدرك بالرأي والاجتهاد، وإنما يؤخذ توقيفًا، فإن صح فالقول به يجب ويوقف عنده، وإلا فتكون الآية عامة في جميع الأشياء، وهو الأظهر والله أعلم»، وهو بهذا يؤيد كلام ابن عطية، وأبو حيان يقول: «الظاهر أن المحو عبارة عن النسخ من الشرائع والأحكام، والإثبات عبارة عن دوامها وتقرؤها وبقائها، أي: يمحى ما يشاء محوه، ويثبت ما يشاء إثباته». ورأيه يوافق رأي الزمخشري، وقتادة - هذا وللمفسرين آراء كثيرة في معنى المحو والإثبات ذكر منها ابن عطية أهمها.

وتثبت»، وهذا دعاءٌ في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منهما، أي: اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك، وكتبت علينا ذنوب وشقاوة فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، وفي لفظ عمر رضي الله عنه - في بعض الروايات - بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتة في تبديل سابق القضاء، ولا يتأول عليهما ذلك.

وقيل: إن هذه الآية نزلت لأن قريشاً لما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قالوا: ليس لمحمد في هذا الأمر قدرة ولا حظ، فنزلت ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ أي: ربما أذن الله من ذلك كما تكرهون بعد أن لم يكن بإذن الله.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يمحو الله ما يشاء ويثبت من أمور عباده، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا نحو ما أصْلَنَاهُ أَوَّلًا فِي الْآيَةِ.

وحكى عن فرقة أنها قالت: يمحو الله ما يشاء ويثبت من كتاب حاشى أم الكتاب الذي عنده لا يغير منه شيئاً، وقالت فرقة: معناه: يمحو كل ما يشاء ويثبت كل ما أراد، ونحو هذه الأقوال التي هي سهلة المعارضة. وأسند الطبري عن إبراهيم النخعي أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وذكر أبو المعالي في التلخيص أن علياً رضي الله عنه هو الذي قال هذه المقالة المذكورة عن كعب، وذلك - عندي - لا يصح عن علي.

واختلفت أيضاً عبارة المفسرين في تفسير ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما^(١): هو الذكر، وقال كعب: هو علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون^(٢).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأصوب ما يُفسَّر به ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ أنه ديوان الأمور المحدثه^(٣) التي قد سبق

(١) دليله على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾.

(٢) وقد روي هذا عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً، فقد سئل عن «أم الكتاب» فقال: «علم الله ما هو خالق، وما خلقه عاملون، فقال لعلمه: كن كتاباً، ولا تبديل في علم الله».

(٣) في الأصول: «الأمور المخزونة»، والتصويب عن «البحر المحيط»، إذ نقل كلام ابن عطية بهذا اللفظ.

القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا يُبدَّل، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تُبدل وتُمحى وتثبت، قال نحوه قتادة، وقالت فرقة: معنى ﴿أَمْ الْكِتَابِ﴾: الحلال والحرام، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن.

قوله عز وجل:

﴿وَإِنْ مَا نُرِيكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۖ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ ۖ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۖ ﴿٤٣﴾﴾.

«إن» شرط دخلت عليها «ما»، وهي قبل الفعل، فصارت بعد في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسم التي تكون قبل الفعل في قولك: «والله لتخرجن»، فلذلك يحسن أن تدخل النون الثقيلة في قولك «نُرِيكَ» لحلولها هنا محل اللام هناك، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إلا في الشعر.

وخصَّ «البعض» بالذكر إذ مفهوم أن الأعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار مما يُوعَد به الكفار، وكذلك أعطى الوجود، ألا ترى أن أكثر الفتوح إنما كان بعد النبي ﷺ، و[أو] عاطفة.

وقوله: [فإنما] جواب الشرط^(١)، ومعنى الآية: إن تبقي يا محمد لترى، أو نتوفيتك

(١) هذا رأي الحوفي، وقد تعقبه أبو حيان في البحر، وقال: والذي تقدم شرطان، لأن المعطوف على الشرط شرط، فأما كونه جواباً للشرط الأول فليس بظاهر، لأنه لا يترتب عليه، إذ يصير المعنى: «وإنما نُرِيكَ بعض ما نعدهم من العذاب فإنما عليك البلاغ»، وأما كونه جواباً للشرط الثاني وهو ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ فكذلك، لأنه يصير التقدير: إما نتوفيتك فإنما عليك البلاغ، ولا يترتب وجوب التبليغ عليه على وفاته عليه الصلاة والسلام، لأن التكليف ينقطع بعد الوفاة، فيحتاج إلى تأويل، وهو أن يتقدر لكل شرط منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مترتباً عليه، وذلك أن يكون التقدير والله أعلم: ﴿وَلَمَّا نُرِيكَ﴾ بعض الذي نعدهم من العذاب فذلك شافيك من أعدائك، ودليل على صدقك، إذ أخبرت بما يحل بهم، ولم يعين زمان حلوله بهم، فاحتمل أن يقع ذلك في حياتك، واحتمل أن يقع بهم بعد وفاتك، ﴿أَوْ تَوَفَّيْنَاكَ﴾ أي: إن نتوفيتك قبل حلوله بهم فلا لوم عليك ولا عتب، إذ قد حلَّ بهم بعض ما وعد الله به على لسانك من عذابهم، فإنما عليك البلاغ لا حلول العذاب بهم، إذ ذلك راجع إليّ، وعلينا جزاؤهم في تكذيبهم إياك وكفرهم بما جئت به». (البحر المحيط ٣٩٩٥).

فعلى كلا الوجهين إنما يلزمك البلاغ فقط. وقوله: ﴿نَعِدُهُمْ﴾ يحتمل أن يريد به المَضَارَّ التي توَعَّد الله بها الكفار، فأطلق فيها لفظة الوعد لما كانت تلك المضار معلومة مصرحاً بها، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام في إهلاك الكفرة، ثم أضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم.

والضمير في قوله: ﴿يَرَوْا﴾ عائد على كفار قريش، وهم المتقدم ضميرهم في قوله: ﴿نَعِدُهُمْ﴾، وقوله: ﴿نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ معناه: بالقدرة والأمر، كما قال الله تعالى: ﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيَ لَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ﴾^(١). و﴿الْأَرْضَ﴾ يريد به اسم الجنس، وقيل: يريد أرض الكفار المذكورين، وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾. وقرأ الجمهور: ﴿نَنْقُصُهَا﴾ وقرأ الضحاك: ﴿نَنْقُصُهَا﴾^(٢)، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، مَنْ قَالَ: «إِنهَا أَرْضُ الْكُفَّارِ الْمَذْكُورِينَ» قال: معناه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي أَرْضَ هَؤُلَاءِ بِالْفَتْحِ عَلَيْكَ فَتَنْقُصُهَا بِمَا يَدْخُلُ فِي دِينِكَ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْبِلَادِ الْمُجَاوِرَةِ لَهُمْ، فَمَا يُؤْمِنُهُمْ أَنَّ نَمَكُنَّكَ مِنْهُمْ أَيْضاً كَمَا فَعَلْنَا بِمُجَاوِرِيهِمْ؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يَتَأْتِي إِلَّا بِأَنَّ يُقَدَّرَ نَزُولُ هَذِهِ الْآيَةِ بِالْمَدِينَةِ. ومن قال: «إِنْ [الْأَرْضَ] اسْمُ جِنْسٍ» جعل الانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يُحِلُّهُ اللَّهُ بِالْكَفَرَةِ، وهذا قول ابن عباس أيضاً ومجاهد، وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البَشَرِ، وهلاك الثمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضاً والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص بموت الأخيار والعلماء، قال ذلك ابن عباس أيضاً ومجاهد، وكلُّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيء: خياره، ومنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «العلوم أودية، في أيِّ وادٍ أَخَذْتَ مِنْهَا خَسِرْتَ، فَخَذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ طَرَفًا»، يعني خياراً. وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرب المثل، أي: أَلَمْ يَرَوْا فَيَقَعْ مِنْهُمْ اتِّعَازٌ، وَأَلِيقَ مَا يَقْصِدُ لَفْظُ الْآيَةِ هُوَ تَنْقِصُ الْأَرْضَ بِالْفَتْوحِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

وقوله: ﴿لَا مُعَقَّبَ﴾ أي: لا رادَّ ولا مناقض يتعقَّب أحكامه، أي: ينظر في أعقابها، أمصية هي أم لا؟^(٣) وسُرْعَة حساب الله واجبة لأنها بالإحاطة وليست بعدد.

(١) من الآية (٢٦) من سورة (النحل).

(٢) بتشديد القاف، من نقص المتعدي بالتضعيف.

(٣) المعقَّب هو الذي يكرُّ على الشيء فيُبطِّله، وحقيقته الذي يعقبه بالردِّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب =

و«المَكْرُ»: ما يتمرس بالإنسان ويسعى عليه، عِلْمٌ بذلك أو لم يعلم، فوصف الله تعالى الأمم السَّالفة التي سعت على أنبيائها، كما فعلت قريش بمحمد ﷺ بالمكر، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي العقوبات التي أحلها بهم، وسماها مكرًا على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾^(١) ونحو هذا، وفي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنبيه وتحذير في طيِّ إخبار. ثم توعدهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عَقَبَى الدَّارِ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: [الكافر] على الأفراد، وهو اسم الجنس، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: [الْكُفَّار]، وقرأ ابن مسعود: [الكافرون]، وقرأ أبي بن كعب «الذين كفروا»، وتقديم القول في ﴿عَقَبَى الدَّارِ﴾ قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. المعنى: ويكذبك يا محمد هؤلاء الكفرة، ويقولون: لست مرسلًا من الله، وإنما أنت مُدَّع، قل لهم: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، و[بالله] في موضع رفع، التقدير: كفى الله، و«شاهد» بمعنى: شاهد، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ أَلِكْتَبِ﴾، قيل: يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب السابقة برفض الأصنام وتوحيد الله تبارك وتعالى، يريد مَنْ آمَن منهم، كعبد الله بن سلام، وتميم الدَّاري، وسلمان الفارسي الذين يشهدون بتصديق محمد عليه الصلاة والسلام. وقال مجاهد: يريد عبد الله بن سلام خاصة، قال هو: في نزلت ﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ أَلِكْتَبِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذان القولان الأخيران لا يستقيمان إلا أن تكون الآية مدنية والجمهور على أنها مكية، قاله سعيد بن جبير، وقال: لا يصح أن تكون الآية في عبد الله بن سلام لكونها مكية، وكان يقرأ: ﴿وَمَنْ عِنْدُ عِلْمٍ أَلِكْتَبِ﴾^(٢).

= الحق: معقَّب لأنه يقفي غريمه بالاقضاء والطلب، قال لييد:

حَتَّى تَهْجَرَ فِي الرُّوْحِ وَهَاجَهُ طَلَبُ الْمُعَقَّبِ حَقُّ الْمَظْلُومِ
أي: طلب المظلوم المعقَّب حقه، و«المعقَّب» في محلِّ رفع لأنها فاعل المصدر «طَلَب»، و«المَظْلُومُ» مرفوع عطفاً على موضع «المعقَّب».

(١) من الآية (١٥) من سورة (البقرة).

(٢) على أن [مِنْ] حرف جر، و[عِنْدَ] مجرورة بها، و[عِلْمٌ] مبني للمفعول، و[الكتاب] نائب فاعل مرفوع، =

وقيل: يريد الله تعالى، كأنه استشهد بالله سبحانه، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم، ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض^(١)، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف^(٢) والتقدير: أعدل أو أمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظ «شاهد»، ويراد بذلك الله تعالى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحكم، وغيرهم: [وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ] بكسر الميم مِنْ [مِنْ] وخفض الدال، قال أبو الفتح: ورُويت عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً، والحسن، وابن السميع: [وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ] بكسر الميم والدال، وبضم العين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله ورفع (الكتاب)، وهذه القراءات يراؤ فيها الله تعالى، لا يحتمل لفظها غير ذلك.

تم تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

* * *

والمعنى: عِلْمُ الْكِتَابِ من عند الله سبحانه وتعالى، وقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قرأ كذلك، روى ذلك محبوب عن إسماعيل بن محمد اليماني، ورُوي أيضاً أنه ﷺ قرأ: «وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ» بكسر الميم في [مِنْ] والعين والدال في (عِنْدِ)، وأن [عِلْمُ] مصدر مضاف إلى [الكتاب] والمعنى عِلْمُ الْكِتَابِ من عند الله روى ذلك سليمان بن أرقم عن الزهري عن سالم عن أبيه قال القرطبي وفي الرواية ضعف [الكتاب] على هاتين القراءتين هو القرآن.

(١) قال أبو حيان: «وليس ذلك كما زعم من عطف الصفة على الموصوف، لأن [مَنْ] لا يوصف بها، ولا بشيء من الموصولات إلا بـ «الذي» و«التي» وفروعها، و«ذو» و«ذوات» الطائيتين، وقوله: «وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض» ليس على إطلاقه، بل له شرط، وهو أن تختلف مدلولاتها، ويعني ابن عطية أنك لا تقول: «مررت بزيد والعالم» فتعطف «العالم» على الاسم، وهو عِلْمٌ لم يلحظ منه معنى صفة، وكذلك «الله» عِلْمٌ. ولما شعر بهذا الاعتراض من جعله معطوفاً على «الله» قدر قوله «بالذي يستحق العبادة» حتى يكون من عطف الصفات بعضها على بعض، لا من عطف الصفة على الاسم.

(٢) والاحتمال الأظهر أن [مَنْ] - في قراءة الجمهور - في موضع خفض عطفاً على لفظ الجلالة [الله]، أو في موضع رفع عطفاً على موضعه، إذ هو في مذهب من جعل الباء في [بالله] زائدة فاعلاً بـ [كَفَى].